Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 41:4 (2006)

دلالة القرآن على عذاب القبر ونعيمه

يوسف الزيوت

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإنه كلما طغت النظرة المادية على الحياة، وتعلّق الناس بعالم الحسِّ والمشاهدة، وغفلوا عما وراء ذلك من الغيبيات والدار الآخرة وما أعدّ الله تعالى فيها من النعيم المقيم لأهل الطاعة، والعذاب الأليم لأهل المعصية ـ نشط الدعاة ونهض علماء الدين يذكّرون الناس بما نسوه وغفلوا عنه من حقائق الإيمان. ومن وسائل الدعاة في هذا المجال، الترهيب من عذاب القبر، والتخويف من أهواله، والتعريف بأحواله، والترغيب بما أعد الله تعالى فيه من صنوف النعيم والتكريم.

وعذاب القبر ونعيمه مسألة إيمانية دلت عليها النصوص من الكتاب والسنة، وأجمعت عليها الأمة، بحيث لا يسع أحداً أن يجحدها أو يشك في ثبوتها. وقد لمست أن البعض من الناس يرى أن القرآن الكريم لم يدل على عذاب القبر ونعيمه، أو أن دلالته ظنية وليست قطعية ولا يقينية، فرغبت أن أبحث هذه المسألة بحثاً موضوعياً لإثبات عذاب القبر والاستدلال عليه، فتلك مسألة فوق ذلك في نظري، استقصاها كثير من أهل العلم قديما وحديثاً بما لا يحتاج معه إلى إيراد الأدلة وسوق البراهين. وإنما الذي دفعني هنا عدة أمور، منها:

١- الكشف والإيضاح والبيان لوجه دلالة القرآن الكريم على هذا المطلب الإيماني، وإثبات أن دلالته كانت قطعية وليست ظنية كما توهّم البعض. ولا يخفى ما لهذا الإيضاح من فائدة إيجابية بحيث يزول اللبس، وتنحسم مادة الخلاف، فيزداد المؤمنون إيماناً، ويزول الظن والشك من قلوب فريق منهم.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

٢- أن الكتب والدراسات التي ألّفت في عذاب القبر ونعيمه قديماً وحديثاً، كان همّ أصحابها ـ في معظم الأحيان ـ جمع الأدلة وسوق البراهين فقط، دون العناية بإيضاح وجه الدلالة معتمدين على فطنة القارئ وفهمه، وكان المفروض أن يهتموا ببيان هذا الجانب ولا يكتفوا بإيراد الآيات القرآنية فقط.

٣- ما أواجهه من حين لآخر ـ من تساؤلات بخصوص هذه المسألة من قبل فئتين من الناس لي بهما اتصال وثيق: أما الفئة الأولى فهي بعض الطلبة من خلال المحاضرات الدراسية، أو خارج المحاضرات، حول هذه القضية. أما الفئة الأخرى فتتمثل في عناصر من أفراد المجتمع المحلي من كافة المستويات، الذين نلتقي بهم في مناسبات مختلفة وخصوصاً مناسبة الوفيات، حيث يتساءل البعض عن القبر وعذابه ونعيمه، وأحوال الموتى في قبورهم، وكيفية العذاب، وحال من لا يدفنون في القبور، وغير ذلك من الأسئلة التي من ضمنها السؤال عن الآيات القرآنية ووجه دلالتها، فيقول بعض هؤلاء السائلين: إنه لا يوجد في القرآن الكريم آيات تدل على هذا، وإنما السنة فقط هي التي ذكرت ذلك.

٤- ما يردده البعض من القول بأنه لا يؤمن ولا يقبل إلا ما دل عليه القرآن الكريم، فإيضاح دلالة القرآن على هذا المقصود، يقيم الحجة على أصحاب هذا القول، وإن كنا لا نقرّهم على هذا المبدء أصلاً، ولا نوافقهم عليه، نظراً لبطلانه ومخالفته لما علم من الدين بالضرورة من وجوب الأخذ بالسنة النبوية الصحيحة كمصدر ثانٍ للإسلام عقيدةً وشريعةً.

وأما منهجي في عرض هذا الموضوع فقد جعلته مختلفاً نوعا ما، عما جرت به عادة الباحثين من ذكر للمسألة، وحصر للأطراف المتنازع فيها، وعرض لأدلة كل طرف، ومناقشتها ... إلخ ولكني آثرت غير هذا المسلك واكتفيت بحصر الآيات القرآنية التي استدل بها العلماء، وبيان وجه دلالتها في ضوء القواعد التي وضعها العلماء في الكشف عن وجوه الدلالة للنصوص الشرعية، وعنونته بـ: "دلالة القرآن على عذاب القبر ونعيمه"، وجعلته في مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة.

أما المقدمة: فذكرت فيها أهمية هذه المسألة، والمسوغات لبحثها ودراستها، ومنهجي الذي اتبعته.

وأما المطلب الأول: فخصصته لبيان الأسباب والعوامل التي أدت إلى القول بأن القرآن لم يدل على عذاب القبر ونعيمه.

وأما المطلب الثاني: ففي حصر الآيات التي ورد فيها لفظ القبر صريحاً أو ما في معناه.

وأما المطلب الثالث: ففي حصر الآيات التي احتج بها العلماء على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

وأما المطلب الرابع: ففي بيان كيفية تعيين دلالة النص القرآني.

وأما المطلب الخامس: ففي بيان وجه دلالة الآيات التي استدل بها العلماء في ضوء تلك القواعد السابقة.

وأما الخاتمة: فذكرت فيها أبرز نتائج البحث التي توصلت إليها.

المطلب الأول: بيان الأسباب والعوامل التي أدت إلى القول بأن القرآن لم يدل على عذاب القبر ونعيمه:

إنه مما لا شك فيه أن الآراء والمذاهب والأقوال لا تأتي من فراغ، فلا بد لذلك من أسباب وعوامل دعت إليه، ولهذا فإن القول بأن القرآن الكريم لم يدل على عذاب القبر، أو أن هذه العقيدة الإيمانية لم ترد في القرآن، كان له أسبابه ومسوغاته، وقد أردت في هذا المطلب أن أتحسس هذه الأسباب، وقصدي من ذلك هو تفسير الأمر، وليس تسويغه والدفاع عنه، فإن بيان الأسباب في بعض المواطن يرمي إلى الدفاع عن واقع الحال ومباركته وإقراره، وليس هذا هدفي هنا، إنما قصدت الإحابة على السؤال الآتي: من أين جاءت هذه الشبهة وكيف علقت في أذهان الناس في القديم والحديث؟ وإن كانوا شرذمه قليلة في مقابل الإجماع المستفيض من علماء الأمة القائم على أن القرآن الكريم قد ذكر ذلك ودل عليه، وإن لم تكن الدلالة واضحة بالمستوى الذي يتطلع إليه آحاد الناس وعامتهم.

وقد وجدت أن هذه العوامل ترجع إلى الأمور التالية:

١- أن القرآن الكريم ـ بالفعل ـ لم ينص نصاً ظاهراً واضحاً بيّنًا على عذاب القبر ونعيمه، كما هو الحال مثلاً فيما يتعلق بعذاب الآخرة، وإنما جاء ذكره بما يحتاج إلى إيضاح عن وجه الدلالة وبيان عن المطلوب، وكشف عن المراد، ومن هنا استشكل الأمر على البعض قديما وحديثاً، فتوهّموا أن هذه المسألة الإيمانية لم ترد في القرآن الكريم، في حين لو جاءت بيّنة بنفسها وظاهرة لما ورد هذا القول. بل وقد ذهب البعض إلى أبعد من هذا فتساءل عن وجه الحكمة في عدم ذكر عذاب القبر ونعيمه في القرآن الكريم، كما ذكره عنهم ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتاب **الروح** وأجاب عليه. فقد جاء فيه: "ما الحكمة من أن عذاب القبر لم يذكر في القرآن صريحاً مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟" ثمّ ردّ على هذا السؤال مستنكراً له من أصله ومؤكداً على أن القرآن لم يغفل ذلك، وإنما ذكره وبيّنه أتم بيان[1]. وقد ذكرت في أسباب اختيار بحث هذا الموضوع أن هذا الأمر هو الذي دفعني إلى الكتابة فيه من أجل إيضاح دلالة الآيات التي استدل بها العلماء على إثبات عذاب القبر ونعيمه، وكشف وجه الخفاء عنها بما يزيل الشبهة، ويكشف عن الحقيقة.

٢- وثمة عامل آخر يتمثل في ميل البعض إلى التعلق بالنص الظاهر الجلي الصريح، والركون له أكثر من ميلهم إلى الإذعان للنص المحتمل أو الذي يعتريه شيء من الإبهام ويفتقر إلى إمعان ونظر

١- انظر: ابن القيم، **الروح**، ص ٧٥-٧٦، والسفاريني، **لوامع الأنوار**، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م، ط ٢، ج ٢، ص ١٢.

ومبينات إضافية للكشف عن وجه المطلوب. والملاحظ أنه حتى مع إيراد الموضحات والمرجحات إلا أنه يبقى في النفس شيء من بلوغ اليقين، بخلاف ما لو كان اللفظ نصاً صريحاً قطعي الدلالة بنفسه. علماً بأن النفوس ـ في الوقت نفسه ـ ميالة إلى الأسلوبين معاً في الكلام، وتمل أو تأنف إذا خوطبت على الدوام بأحدهما دون الآخر، ولعله من هنا جاء منهج القرآن في مخاطبة العقل البشري باللفظ الظاهر الواضح تارة، وباللفظ الذي يحتاج إلى توضيح وبيان تارة أخرى، فيضطره إلى الفكر والنظر والتدبّر والوقوف عند الدليل ملياً، مما يترتب عليه تثبيت المدعى ولفت النظر إليه بصورة أدعى مما لو كان الخطاب في غاية من الوضاحة والبيان.

ومن هنا أقول: إن كلام القرآن الكريم عن عذاب القبر بأسلوب يحتاج إلى إيضاح وبيان، جاء لحكمة وغاية وهي لفت الأنظار إلى الاهتمام بهذه العقيدة الإيمانية فيكون الإيمان بها أوقع على النفس مما لو خوطبت بأسلوب واضح ومباشر. وعليه فيمكنني أن أعكس الأمر على القائلين بأن القرآن لم ينص على عذاب القبر ونعيمه، وأذكرهم بقول الله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا**﴾. فالقرآن الكريم قد ذكر ذلك، ولكن بالأسلوب الآخر، وهو ما سيكشف عنه المطلب الخامس من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

٣- والعامل الثالث في رأيي يرجع إلى جهل كثير من الناس، وعدم معرفتهم بأساليب العرب في البيان عن مقاصدهم، وبقواعد علم أصول الفقه، وعلم التفسير والضوابط التي في ضوئها تفسر الآيات القرآنية ويتعين وجه دلالتها على الأحكام. وهذا العامل يخص العامة من جهة، ويخص العلماء من جهة أخرى، أما العامة من الناس فمما لا شك فيه أنهم لا يعلمون شيئاً من القواعد والأسس والضوابط التي يعتمد عليها المفسرون في تفسير القرآن الكريم وبيان وجوه دلالته، ويظنون أن الدلالة أو المعنى لا يتحدد إلا إذا كان النص صريحاً بيّناً بنفسه، ولا يسلمون لغير هذا المنطق في الخطاب، ولو علموا أن الدلالة تتعين بوسائل أخرى تواطأ عليها المختصون في علم التفسير، لما نازعوا في دلالة القرآن على عذاب القبر ونعيمه، ولكنهم جهلوا هذا وتعلقوا بذاك، فاستشكل عليهم الأمر إذ لم يجدوا نصاً واضحاً بنفسه، ولهذه الفئة ـ في نظري ـ عذرها، فمن جهل شيئاً عاداه.

وأما الخاصة ـ وهم بعض من ينتسب إلى العلوم ويدعي الفهم ـ فإنهم مع معرفتهم بعلم التفسير وغيره من العلوم ذات العلاقة به، يترددون في قبول دلالة النص القرآني، ولا يسلمون للدلالة غير النصّية ظاهرة القطع، ولا يلتزمون بتطبيق قواعد المفسرين، ويتعلقون ـ كالعامة ـ بضرورة أن تكون الآية نصاً صريحاً، وقولاً بيّناً فصيحاً.

والمطلوب هنا أن يعرف العامة بتلك القواعد والضوابط، وأن يلتزم بها الخاصة، وهو ما آمل أن يحققه هذا البحث، وإلا فإن كثيراً من المسائل الإيمانية بل والعملية أيضاً ستكون مثار شكوك وظنون، لأنها من وجهة نظر هؤلاء لم تثبت بنص قرآني صريح الدلالة على حد قولهم.

٤- ويبقى ثمة عامل آخر ـ وهو من الأهمية بمكان ـ مرده إلى المنهج الذي سلكه بعض أعلام المدرسة العقلية الكلامية في الفكر الإسلامي، وذلك أن المتكلمين اختلفوا في مسألة دلالة النقل، هل هي قطعية أم ظنية؟ ووضعوا لدلالتها على اليقين والجزم والعلم شروطاً كان من لوازمها التشكيك في مدى دلالة الأدلة النقلية على القطع واليقين. فهذا الرازي رحمه الله مثلاً يقول: "المسألة الثامنة والثلاثون في أن التمسّك بالدلائل اللفظية هل يفيد اليقين أم لا؟ وأجاب قائلاً: اختلف العقلاء في أن التمسّك بالدلائل النقلية هل يفيد اليقين أم لا؟ فقال قوم: إنه لا يفيد اليقين البتة، وذلك لأن التمسّك بالدلالة النقلية موقوف على مقدمات عشر كل واحدة منها ظني، والموقوف على الظني أولى بأن يكون ظنياً". ثم ذكر تلك المقدمات العشر وقال في آخرها: "فثبت أن الدلائل النقلية موقوفة على هذه المقدمات العشر وكلها ظنية، والموقوف على الظني أولى أن يكون ظنياً، فالدلائل النقلية ظنية"(٢).

وأما هذه المقدمات العشر فقد ذكرها أيضاً الأيجي رحمه الله في **المواقف** فقال: "المقصد الثامن: الدلائل النقلية هل تفيد اليقين؟ قيل لا. لتوقفه على العلم بالوضع والإدارة، والأول: إنما يثبت بنقل اللغة والنحو والصرف، وأصولها تثبت برواية الآحاد، وفروعها بالأقيسة، وكلاهما ظنيان. والثاني: يتوقف على عدم النقل، والاشتراك، والمجاز، والإضمار، والتخصيص، والتقديم، والتأخير، والكل لجوازه لا يجزم بانتفائه، بل غايته الظن. ثم بعد الأمرين لا بد من العلم بالمعارض العقلي. إذ لو وجد لقدم على الدليل النقلي قطعاً(٣).

وهذا ما صرح به صاحب **نظم الفرائد** شيخ زاده في بيانه للمسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية في العقائد فقال: "وذهب المشايخ من الأشاعرة إلى أنها لا تفيد القطع واليقين بل تفيد الظن كما هو المصرح به في **شرح المواقف** للشريف العلامة الجرجاني و **إشارات المرام** ...

٢- انظر: فخر الدين الرازي، **الأربعين في أصول الدين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٤٢٣- ٤٢٦، وانظر: له أيضاً: **المحصل**، ص ٥١.

٣- انظر: الأيجي، **المواقف في علم الكلام**، ص ٤٠.

واستدل مشايخ الأشاعرة بأن الدلائل النقلية مبنية على اللغة والصرف والنحو وعدم الاشتراك والمجاز والإضمار والنقل والتخصيص والتقديم والتأجير والناسخ، والمعارض العقلي، وهي ظنية"(٤).

ويبدو أن هذه الأقوال كان لها انعكاسات سلبية على العقائد الإيمانية، وإن كان أصحابها ـ بلا شك ـ لا يقصدون ذلك ولا يرمون إليه، بل إنما وضعوها بداية لحماية العقيدة والدفاع عنها ضد خصومها، ولكنها كانت ذريعة للشك والتردد في قبول دلالة النقل على المسائل العلمية والإيمانية عند بعض من اطلعوا عليها، وصاروا يبحثون في تحقيق هذه المقدمات العشر ونفي المعارض العقلي، متوهمين أن دلالة الآيات القرآنية، مرهونة بها لا غير، وغاب عنهم أن لمعرفة دلالة القرآن طرقاً أخرى: كتفسير السنة النبوية الصحيحة التي قامت بدورها في شرح القرآن وبيانه، وكذلك تفسير الصحابة والتابعين الذين شهدوا التنزيل، إلى كونهم أصحاب اللغة والأدرى بنحوها وصرفها وأساليب بيانها.

٥- ويمكنني أن أضيف عاملاً آخر بالإضافة إلى ما سبق، وهو الجهل بأحكام الحياة البرزخية، وما يجري فيها للموتى ـ قبروا أم لم يقبروا ـ من نعيم وعذاب، وكيفية ذلك. فإنني ألتقي مع قطاع عريض من الناس، يظهر لي من خلال أسئلتهم أنهم لا يعرفون شيئاً عن أحكام المرحلة البرزخية ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وبعضهم لا يعرف إلا حياتين للإنسان: الدنيا والآخرة، وغاب عنهم أن هناك داراً ثالثة يسكنها الإنسان، ويمكث فيها زمناً يمتد من لحظة موته إلى بعثه ونشوره ليوم الحساب. والذي يعرف منهم أن هناك داراً ثالثة يجهل كثيراً من أحكامها وأحوالها، ولعل في مقدمة ما يجهله مثل ما يلي: هل هناك عذاب أو نعيم يقع على الميت في هذه المرحلة؟ وإن كان هناك شيء من ذلك، فمتى يبدأ؟ وهل هو دائم أم منقطع؟ وهل العذاب خاص بالكفار أم يشمل أهل المعاصي من المؤمنين الموحدين؟ والنعيم هل هو خاص بالشهداء أم يشمل جميع المؤمنين؟ وهل العذاب أو النعيم يقع على الروح أم على الجسد؟ ثم كيف الحال بمن لم يقبر في القبر لسبب أو لآخر؟ ولعل هذا من أهم ما يدفع البعض إلى إنكار عذاب القبر ونعيمه، إلى جانب العوامل الأخرى السابقة. ولست معنياً هنا بالإجابة على هذه الأسئلة، فإن كتب العقيدة والتفاسير وشروح الأحاديث النبوية قد تولت هذا بالتفصيل، بل هناك كتب مفردة قديما وحديثا تبحث في أحكام الحياة البرزخية ويمكن الرجوع إليها، وهي من الشهرة بمكان.

٤- انظر: شيخ زاده، **نظم الفرائد**، مطبعة القدم، مصر، ط ٢، ص ٥٦-٥٧.

وبعد، فهذه جملة من الدوافع والأسباب، رأيت أنها ساهمت مجتمعة في نشأة القول بنفي عذاب القبر ونعميه، ومن ثم في انتشاره، وإن كان ذلك على المستوى الذي لا يعد ظاهرة بارزة بحيث يشكل خطورة يخشى منها، ومع هذا فلا بدّ من رصدها، والوقوف في طريقها حمايةً للعقيدة بشكل عام.

المطلب الثاني: الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر لفظ القبر وما في معناه:

في هذا المطلب رغبت في حصر الآيات التي ورد فيها ذكر مصطلح "القبر" وما في معناه من المشتقات والمصطلحات الأخرى، كالبرزخ. وربما يكون أكثر هذه الآيات مما لا علاقة له بالهدف من هذا البحث، ولكن أحببت أن أضعها بين يدي القارئ، إذ أن استعمال القرآن الكريم لمصطلح القبر في مواضع متعددة، يدعو إلى القول: إن فترة القبر تشكل مرحلة من الوجود الإنساني، ولا يعقل أن تكون مرحلة سكون مطلق، ولا بد أن يكون لها أحكام، ومن غير المعقول أيضاً، أن يكون القرآن قد أغفل الحديث عن ذلك، وهو الذي جاء تبياناً لكل شيء، سواء أكان حديثه عن ذلك بالنص الواضح البيّن أم بما يحتاج إلى توضيح وبيان وكشف عن وجه الدلالة. وبالرجوع إلى القرآن الكريم، والمعجم المفهرس لألفاظه، وجدت أن القرآن قد استعمل لفظ القبر في عدة مواضع ولم يتطرق فيها للحديث عن أحكام القبر.

وأحب قبل إيراد الآيات أن أنقل بعض ما كتبه الراغب في **مفرداته** في بيان معنى القبر وتفسير بعض الآيات الواردة بذكره، فيقول رحمه الله: "القبر: مقر الميت، مصدر قَبَرتُه، أي جعلته في القبر، وأقبَرتُه: جعلت له مكاناً يُقْبَرُ فيه، نحو أسقَيْتُه: أي جعلت له ما يسقى منه، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**﴾. والمقبرة بفتح الميم وكسرها ـ موضع القبور ـ وجمعها مقابر. قال تعالى: "﴿**حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ كناية عن الموت"(٥).

وأما الآيات التي ذكرت القبر وما في معناه فهي:

١- قوله تعالى في الإشارة إلى مراحل وجود الإنسان بدءاً ونهاية: ﴿**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيْلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ**﴾، سورة عبس، الآيات: ١٧-٢٢.

٢- قوله تعالى في الإشارة إلى حتمية اليوم الآخر والبعث: ﴿**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيْهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُوْرِ**﴾، سورة الحج، الآية: ٧.

٥- انظر: الراغب الإصفهاني، **المفردات من غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٣٩٠.

٣- قوله تعالى في تشبيه الكفار بالأموات: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَآءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَآءُ وَمَآ أَنْتَ بِـمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُوْرِ﴾، سورة فاطر، الآية: ٢٢.

٤- قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُوْرِ﴾، سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُوْرُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، سورة الانفطار، الآيتان: ٤-٥.

٦- وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُوْرِ﴾، سورة العاديات، الآية: ٩.

٧- قوله تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُـرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِـرَ﴾، سورة التكاثر، الآيتان: ١-٢.

٨- قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوْا بِـاللّهِ وَرَسُوْلِهِ وَمَاتُوْا وَهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾، سورة التوبة، الآية: ٨٤.

٩- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُوْنَ﴾، سورة المؤمنون، الآيات: ٩٩-١٠١.

وقد جاء ذكر البرزخ ـ وهو الحاجز بين الشيئين أي بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ـ بمعنى المرحلة القبرية.

المطلب الثالث: الآيات التي احتج بها العلماء على إثبات عذاب القبر ونعيمه:

لقد صرّح العلماء على اختلاف مدارسهم، وتعدد تخصصاتهم سواء أكانوا مفسرين أم محدثين أم فقهاء أم أصوليين، متقدمهم ومتأخرهم ـ بأن القرآن الكريم قد جاء فيه ذكر كل شيء، اعتماداً على قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومن جملة ذلك الإشارة إلى عذاب القبر ونعميه، وإن لم يكن ذلك بالعبارة الصريحة الواضحة بصورة جلية، كما هو الحال في عذاب الآخرة.

فهذا السيوطي رحمه الله يقول في كتابه **شرح الصدور**: "باب عذاب القبر نعوذ بالله منه، وقع ذكره في القرآن في عدة أماكن، كما بيّنته في **الإكليل في استنباط التنزيل**"(٦). وفي مقدمة **الإكليل** قال رحمه الله: "قلت: قد اشتمل كتاب الله على كل شيء ... وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته،

٦- انظر: السيوطي، **شرح الصدور**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ط ١، ص ١٦٠.

وكيفية الموت وقبض الروح، وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للمؤمنة، وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح ... إلخ"(٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "... كما أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقاً زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن، وهو غلط، بل القرآن قد بيّن في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن، وبيّن النعيم والعذاب في البرزخ. وهو سبحانه وتعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى والقيامة الصغرى كما في سورة الواقعة"(٨).

وكذلك قال غير واحد من أكابر أهل العلم، بحيث لو رحت أجمع أقوالهم لطال بنا الكلام، وفي قول السيوطي وابن تيمية ما يكفي للرد على شبهة القول بأن القرآن لم يذكر ذلك(٩). وقد رغبت هنا في هذا المطلب، أن أجمع أشهر الآيات التي استدل بها العلماء، واستنبطوا منها الدليل من القرآن على عذاب القبر ونعيمه، وذلك تمهيداً لبيان وجه دلالتها، وإيضاح خفائها في مطلب لاحق إن شاء الله تعالى. ونجد أن العلماء قد استدلوا بجملة وافرة من الآيات على هذا المطلب، الأمر الذي يدل على مدى اهتمام القرآن الكريم بعذاب القبر وأنه لم يغفله بل ذكره ودلّ عليه في عدة مواطن، غاية ما في الأمر أنها لم تكن صريحة الدلالة بشكل ظاهر. وسأذكر هذه الآيات مرتبة حسب تسلسل السور في القرآن الكريم وهي:

١- قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ٢٨: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ**﴾.

٢- قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ١٥٤: ﴿**وَلاَ تَقُوْلُوْا لِمَنْ يُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِنْ لاَّ تَشْعُرُوْنَ**﴾.

٧- انظر: السيوطي، **الإكليل في استنباط التنزيل**، تحقيق: سيف الدين عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م، ط ١، ص ٢٠.

٨- انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، طبعة المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، ج ٤، ص ٢٦٣.

٩- انظر: القرطبي، **التذكرة في أحوال الموتى**، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٦٨. وانظر أيضاً: البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، تحقيق: شرف القضاة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م، ط ١، ص ٤٥-٧٠، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، **شرح الأصول الخمسة**، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٨٨م، ط ٢، ص ٧٣٠-٧٣٣، وابن رجب الحنبلي، **أهوال القبور**، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤م، ط ٣، ص ٧٩-٨٠.

٣- قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية ١٦٩: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾.

٤- قوله تعالى في سورة الأنعام، الآية ٩٣: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِيْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ أَخْرِجُوْا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ﴾.

٥- قوله تعالى في سورة التوبة، الآية ١٠١: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُوْنَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ مَرَدُوْا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيْمٍ﴾.

٦- قوله تعالى في سورة إبراهيم، الآية ٢٧: ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِيْنَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

٧- قوله تعالى في سورة طه، الآيات ١٢٣-١٢٧: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

٨- قوله تعالى في سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩- ١٠٠: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ﴾.

٩- قوله تعالى في سورة السجدة، الآية ٢١: ﴿وَلَنُذِيْقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُوْنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾.

١٠- قوله تعالى في سورة غافر، الآية ١١: ﴿قَالُوْا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوْبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوْجٍ مِّنْ سَبِيْلٍ﴾.

١١- قوله تعالى في سورة غافر، الآيتان ٤٥-٤٦: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوْا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوْءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

١٢- قوله تعالى في سورة فصلت، الآية ٣٠: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوْا وَلاَ تَحْزَنُوْا وَأَبْشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِيْ كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ﴾.

١٣- قوله تعالى في سورة الطور، الآية ٤٧: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا عَذَابًا دُوْنَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾.

١٤- قوله تعالى في سورة الواقعة، الآيات ٨٣-٩٤: ﴿فَلَوْلآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوْمَ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْنَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُوْنَ فَلَوْلآ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِيْنِيْنَ تَرْجِعُوْنَهَآ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيْمٍ وَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِيْنِ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِيْنِ وَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِيْنَ الضَّآلِّيْنَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيْمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيْمٍ﴾.

١٥- قوله تعالى في سورة نوح، الآية ٢٥: ﴿مِمَّا خَطِيْئَاتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُم مِّنْ دُوْنِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

١٦- قوله تعالى في سورة التكاثر: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾.

المطلب الرابع: كيفية تعيين دلالة النص القرآني:

النصوص اللفظية بغض النظر عن نوعها ـ تقسم من حيث وضوح دلالتها على المراد بها إلى قسمين: نصوص ظاهرة الدلالة بصورة قطعية بيّنة واضحة دالة على المطلوب، بحيث لا تحتاج إلى تفسيرأو توضيح، ونصوص غير واضحة الدلالة، لسبب أو لآخر، حيث تحتاج إلى تحرير وجه دلالتها وتحديد المراد منها(١٠). وقد اهتم العلماء بالصنف الثاني اهتماماً كبيراً، فوضعوا الأسس، وقعدو القواعد التي يجب اتباعها من أجل الوصول إلى بيان مقاصد الألفاظ وتعيين مرامي الأقوال، فلا يختلف بعد ذلك على المعنى المراد. وآيات القرآن الكريم لم تخرج على ذلك، فلم تأت كلها على نسق

١٠- انظر: البرديسي، **أصول الفقه**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م، ص ٣٨٢.

واحد من وضوح الدلالة، وظهور المعاني، فكان منها ما يحتاج إلى الشرح والبيان والتفسير والتأويل، وفق قواعد منهجية وضوابط مرجعية، وضعها المعنيون بتفسير القرآن وإيضاح مراميه، اتفقوا على أنها ترجع إلى ثلاث قواعد هامة وهي(١١):

١- القاعدة الأولى:

تفسير القرآن بالرواية وهو ما يعرف بالتفسير بالنقل أو المأثور عند المفسرين، ويتضمن: تفسير القرآن بالقرآن أولاً ثم تفسير القرآن بالسنة النبوية الصحيحة، ثم تفسير القرآن بكلام الصحابة رضي الله عنهم باعتبار أنهم هم الذين عاصروا التنزيل فهم أعرف بأسباب نزوله، وهم أهل اللغة فهم أدرى بأساليبه وفنونه، ولا يصار عن هذه القاعدة إلى غيرها من القواعد اللاحقة، ما دام أنها تفي بالغرض وتحقق الغاية(١٢). لا يصح أن تؤخذ الآية منفردة عن غيرها من الآيات، أو في معزل عن الأحاديث النبوية الصحيحة التي تفسرها وتشرحها، فتقيد مطلقها، أو تخصص عمومها، أو تعمم خصوصها، أو توضح مبهمها ومشكلها إلى غير ذلك مما اتفق العلماء عليه من مكانة السنة من القرآن. يقول ابن حزم الظاهري رحمه الله: "وإنما هلك من هلك بأخذه آية وتركه أخرى وأخذه حديثا وتركه آخر أو أخذه آية وتركه حديثا يبيّنها أو أخذه حديثا وتركه آية وهذا خطأ لا يحل وإنما الفرض على المسلمين أخذ كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن وسنة، وضم كل ذلك بعضه إلى بعض"(١٣). وهذا الأسلوب هو أحد الأساليب المعتمدة عند علماء الأصول، ويسمونه بالنص المفسر، وهو اللفظ الذي دل على معناه دلالة قطعية بحيث لا يحتمل أن يدل على معنى غيره، أو دل على معانٍ متعددة وجاءت السنة القولية أو الفعلية مبيّنة للمعنى المراد بياناً قاطعاً لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاه الله تعالى سلطة التبيين للآيات وتعليمها للناس قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ**

١١- انظر في هذا: السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ٢، ص ١٧٩، **والإكليل** له، ص ٢٠، والزرقاني، **مناهل العرفان**، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٣، ج ١، ص ٤٧٨، والقطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص ٣٣١، والصابوني، **التبيان في علوم القرآن**، ص ٦٣، والذهبي، **التفسير والمفسرون**، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦م، ط ٢، ج ١، ص ٣٢، وأبو صفية الحارثي، **دلالة السياق**، ١٩٨٩م، ط ١، ص ١٠٠- ١٠١.

١٢- انظر: الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٤٩١، والصابوني، **التبيان في علوم القرآن**، ١٩٨٠م، ط ٣، ص ٦٥.

١٣- انظر: **رسائل ابن حزم**، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م، ط ١، ج٣، ص ٢١٩، والآمدي، **الإحكام**، تحقيق: سيد الجميلي، ١٩٨٤م، ط ١، ج ١، ص ٢٠٨.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فتفسيره هو تفسير من الشارع، وهو قاطع احتمال التأويل فالمفسر لا يحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً لأن دلالته على معناه دلالة قطعية، ولأن الرسول بعد بيانه للمجمل يقطع احتمال التأويل"(١٤).

وفيما يخص مسألة البحث "عذاب القبر ونعيمه" لا تجد في القرآن الكريم نصوصاً صريحة الدلالة، يمكن أن تفسر غيرها، ولهذا فالتعويل كله سيكون على السنة النبوية الصحيحة، ثم ما صح أيضاً من الآثار المروية عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بحيث لا يبقى معه اعتراض لمعترض، أو قول لقائل بأن القرآن لم يدل على عذاب القبر ونعيمه. وهذا منهج معتبر عند المفسرين وعلماء الأصول، وقواعدهم أصول يجب المصير إليها والوقوف عندها. ومن هنا فاعتمد على هذا اعتماداً كبيراً في بيان دلالة القرآن على عذاب القبر ونعيمه، فإن السنة النبوية قد تولت إيضاح ما خفي من الآيات الدالة على هذا المطلب، بما لا يصح معه إنكار دلالة القرآن على ذلك.

٢- القاعدة الثانية:

تفسير القرآن بالدراية وهو ما يسمى بالتفسير بالرأي، إذ عند تعذر الطريق الأول لسبب ما، فإنه يصار إلى الرأي والنظر والاجتهاد والاستنباط الفعلي، لمعرفة المراد من الآية، وقد وضع علماء التفسير لهذا أصولاً، وقعدوا له قواعد تجب مراعاتها، بحيث لا يصح لمن لم يكن أهلا أن يقول في القرآن الكريم برأيه أو تخرصه، بل لا بد من أن تتحقق فيه شروط المجتهد التي نصّ العلماء عليها من: العلم باللغة وعلومها خاصة، وبغيرها من العلوم الأخرى كعلم أصول الفقه وغيره عامة بحيث يركن إلى قوله، ويعتد باجتهاده ونظره(١٥). وقد اعتمد علماء أصول الفقه وعلماء الكلام في بيان وجوه دلالة الألفاظ على المعاني ـ على هذا اعتماداً كبيراً، وقسّموا الألفاظ غير الواضحة الدلالة إلى أربعة أقسام هي: الخفي والمشكل، والمجمل والمتشابه، وجعلوا سبيل إزالة الغموض هو الاجتهاد العقلي(١٦).

ولا شك أن دلالة هذا الطريق، وإن لم تصل إلى درجة القطع واليقين الذي لا يرتقي إليه شيء من الشك أو الظن ـ إلا أنه لا يصح التهوين أو التقليل من قوة دلالته، إذ أن القرآن الكريم جاء بلغة العرب وفق أساليبها البيانية، وعلماء الأصول وهم من علماء اللغة والمعرفة بأساليبها، بمقدورهم

١٤- راجع هامش ١١.

١٥- انظر: البرديسي، **أصول الفقه**، ص ٣٨٣، والزلي، **دلالات النصوص**، جامعة بغداد، ١٩٨٢م، ص١٧٧-١٨٦، والدريني، **المناهج الأصولية**، دار الكتاب الحديث، دمشق، ١٩٧٥م، ط ١، ص ٥٥-٦١، ٦٩-٧٠.

١٦- انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج ٢، ص ٣٥٢-٣٧٠.

أن يحددوا دلالة ألفاظ القرآن على الأحكام العملية والعلمية، نظراً لمعرفتهم بعلوم العربية، وقياساً على دور الصحابة رضي الله عنهم، في قبول تفسيرهم للقرآن بناء على معرفتهم المباشرة بالقرآن وعلوم العربية مما لم يتهيأ لغيرهم، فكذلك علماء اللغة والأصول، فآراؤهم مرجع معتبر، وفهمهم مستند صحيح يعتمد عليها في فهم القرآن الكريم والكشف عن مقاصده وبيان أحكامه. ومن هنا فسأعتمد على هذا المسلك لبيان دلالة الآيات القرآنية التي استدل بها العلماء على عذاب القبر ونعيمه، من خلال إيضاح وجه دلالتها، الأمر الذي يقطع دابر القول بأن عذاب القبر ونعيمه لم يرد ذكره في القرآن.

٣- القاعدة الثالثة:

تفسير القرآن بالإشارة وهو المعروف بالتفسير الإشاري وهو طريق المتصوفة ومسلكهم الخاص، إذ يعتمدون فيه في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم وبيان دلالتها على الأحكام والمعاني ـ على إشارات خفية تنقدح في نفوسهم، لا تقوم على قواعد مرجعية، ولا ضوابط منهجية، يحتكم إليها عند الاختلاف، ولهذا تجدهم قد يخرجون بالنصوص الشرعية عن ظاهرها إلى معاني باطنية بعيدة غير محتملة، الأمر الذي دفع العلماء أن يتحفظوا على قبول هذا اللون من ألوان التفسير(١٧). ولهذا فلن أعتمد على هذا النمط غير المنهجي في إيضاح دلالة القرآن على عذاب القبر، لأن ثبوت المسائل الإيمانية مبني على صحة الدليل الدال عليها، والقول بالإشارة مظنة الوهم فلا يصلح دليلاً للقطع بمؤداه، بل ولا غلبة الظن، نظراً لأن ما ينقدح في النفس من معلومات ليس له ضابط أو مرجع يصار إليه.

وقد يختلط على البعض استعمال مصطلح الإشارة هنا بما هو عند الأصوليين من استعمال دلالة الإشارة على الأحكام. قال البرديسي: لا يمكن استنباط الأحكام الواردة في القرآن والسنّة إلا بعد فهم المعنى، وهذا الفهم إما أن يكون طريقه عبارة النص أو إشارتهُ أو دلالته أو اقتضاءه. فالحكم المستفاد من اللفظ إما أن يكون ثابتا بنفس اللفظ أو لا، فإن كان الأول فهو العبارة، وإلا فهو الإشارة....(١٨). فهذا الكلام قد يوهم أن التفسير الإشاري عند المتصوفة، طريق إلى بيان المقاصد وإيضاح دلالة الألفاظ على الأحكام، كما هو الحال عند علماء الأصول، وليس الأمر كذلك، فدلالة إشارة النص عند الأصوليين منهج مختلف تماماً عما هو عند المتصوفة، إذ أنه عند أهل الأصول منضبط بضوابط منهجية تنتج أحكاماً قطعية كما هو مقرر عندهم. وعليه فيمكن الاستعانة بدلالة الإشارة عند

١٧- انظر: البرديسي، **أصول الفقه**، ص ٣٦٤.

١٨- المرجع السابق، ص ٣٦٩، ٣٧٣، والدريني، **المناهج الأصولية**، ص ٣٠٤- ٣٠٥.

الأصوليين على بيان وجه دلالة القرآن الكريم على عذاب القبر ونعيمه، مما يسهم أيضاً في قطع شبهة القول بأن القرآن الكريم لم ينص على عذاب القبر، ولم يدل عليه.

ومما لا يخفى أن الاستدلال بإشارة النص القرآني يعد من باب التفسير بالدراية ومن هنا فدلالة الآية القرآنية على الأحكام العلمية والعملية، تكون بإحدى طريقتين: إما التفسير بالرواية أو التفسير بالدراية، وإما بهما معاً، ولا تقل أهمية كل طريق عن الأخرى، وإن كانت طريق الرواية أدل، لأنها إيضاح لوجه الدلالة من جهة واضع النص، والمطلع على حيثياته، فقوله هو الحكم الفصل في قطع الخلاف في دلالة الألفاظ على المعاني المرادة بها.

المطلب الخامس: بيان وجه دلالة الآيات التي استدل بها العلماء على عذاب القبر ونعيمه في ضوء القواعد السابقة:

أولاً: إيضاح وجه الدلالة بطريق الرواية:

سبق القول بأن تفسير القرآن، وبيان أحكامه بطريقة الرواية، هو المسلك المأمون والمقدم في الاستدلال، إن كان طريق الدراية لا يقل عنه أهمية، وهذا ما نهجه العلماء في بيان وجه دلالة القرآن على عذاب القبر، فنجدهم يذكرون الآية ثم يتبعونها بما يفسرها ويحدد مرادها ويكشف عن مقصودها، من الأحاديث الصحيحة والآثار المروية بالسند الصحيح عن الصحابة والتابعين.

فهذا البخاري رحمه الله تعالى ـ على سبيل المثال يعقد باباً مستقلاً في صحيحه بعنوان: ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالى وذكر آية الأنعام ٩٣، وآية التوبة ١٠١، وآية غافر ٤٥، ثم ساق بعدها ما صح عنده من الأحاديث والآثار المفسرة لها والموضحة لوجه دلالتها. وعقب ابن حجر رحمه الله في **الفتح** على صنيع البخاري في ترجمة الباب فقال: "قوله ـ أي البخاري ـ وقوله تعالى: بالجر عطفاً على عذاب القبر، أي ما ورد في تفسير الآيات المذكورة، وكأن المصنف قدم ذكر هذه الآيات لينبه على ثبوت ذكره في القرآن، خلافا لمن رده وزعم أنه لم يرد ذكره إلا من أخبار الآحاد"(١٩). وقال الإمام النووي رحمه الله في **شرحه لصحيح مسلم**: "اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، وأورد آية غافر ٤٦، ثم قال: وتظاهرت الأحاديث الصحيحة به عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة، وقد ذكر مسلم هنا أحاديث كثيرة في إثبات عذاب القبر، وسماع النبيّ صلى الله عليه وسلم لأهل القليب،

١٩- ابن حجر: **فتح الباري**، تحقيق: عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ص ٢٣١-٢٣٣.

وقوله: ما أنتم بأسمع منهم، وسؤال الملكين الميت، وإقعادهما إياه، وجوابه لهما، والفسح له فيه، وعرض مقعده عليه بالغداة والعشيّ"(٢٠).

وكذلك صنع أئمة التفسير وغيرهم كالبيهقي رحمه الله كما سيظهر لنا من خلال نقل كلامهم في تفسير الآيات في هذا الباب، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على مدى اعتمادهم على هذه الطريق، في الكشف عن دلالة الآيات القرآنية.

فهذا الرازي رحمه الله، وهو كبير أئمة التفسير بالرأي كان إذا أعياه الكشف عن وجه الدلالة بواسطة الرأي والاجتهاد العقلي، رجع إلى الأحاديث الصحيحة المفسرة لها والآثار الدالة عليها. فتجده مثلاً في تفسيره لآية غافر ﴿**رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ..**﴾ يقول: "احتج أكثر العلماء بهذه الآية في إثبات عذاب القبر.. ثم أورد ستة أسئلة على هيئة اعتراضات من قبل الخصم على دلالة هذه الآية على عذاب القبر، ثم رد عليها جميعها وناقشها بطريقته، وقال بعد ذلك: ونرجح قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر"(٢١). وتبعه الآلوسي رحمه الله في **روح المعاني** عند تفسيره للآية نفسها، فقال: "والمنصف يرى أن عذاب القبر ثابت بالأحاديث الصحيحة دون هذه الآية"(٢٢). وفي موطن آخر قال في التعقيب على من يرى أن المعيشة الضنك إنما تكون يوم القيامة فقط: "ولعل الأخبار السابقة لم تبلغ هذا القائل، أو لم تصح عنده، وأنت تعلم أنها إذا صحت فلا مساغ للعدول عما دلت عليه"(٢٣).

ولا غرابة في أن العلماء والمفسرين يميلون إلى طريق الرواية في تفسير النصوص القرآنية فيما يتعلق بأمور العقيدة على وجه الخصوص أكثر من تعويلهم على طريق الدراية، ذلك لأن أمور العقيدة غيبية، فهي توقيفية مردها إلى النصوص ثم بعد ذلك يمكن للعقل أن ينظر فيها، ويبحث في ثبوتها عن طريق توجيه النصوص بطريق العقل. ولهذا تجدهم يعولون على طريق الرواية في نهاية المطاف، ويقفون عند تفسير الأحاديث والآثار الصحيحة باعتبارها المرجع المأمون في الكشف عن دلالة القرآن. وقد نجد المفسر بطريق الرواية لا يغفل اللجوء لطريق الدراية والنظر العقلي، فيجمع بين الطريقين معاً في آنٍ واحد، كما هو ملحوظ عند الطبري رحمه الله وغيره أيضاً.

٢٠- النووي، **شرح مسلم**، طبع مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ج ١٧، ص ٢٠٠-٢٠١.

٢١- **تفسير الرازي**، دار الفكر بيروت، ١٩٨١م، ط ١، ج ٢٧، ص ٤٠-٤١.

٢٢- الآلوسي، **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢٤، ص ٥٣.

٢٣- نفس المرجع، ج ١٦، ص ٢٧٧.

١- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة إبراهيم، الآية ٢٧: ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِيْنَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَآءُ**﴾.

استهل البيهقي رحمه الله كتابه **إثبات عذاب القبر** بهذه الآية، وذكر من الأحاديث والآثار الصحيحة المفسرة لها والموضحة لدلالتها على عذاب القبر ما مجموعه اثنان وثلاثون خبراً بين حديث أو أثر مرفوع أو موقوف عن مشاهير الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، كلها تصرح بأن الإنسان (المسلم والكافر) يسأل ويبتلى في القبر، فيثبت الله المؤمن ويهديه الجواب المنجي، ويضلّ الكفار والظلمة فلا يهتدون جواباً. ولا يهمني هنا أن أحشد هذا الكم الهائل من الأحاديث والآثار فهي محصية ومحققة ومخرّجة، ويسهل الرجوع إليها لطلب المزيد من التثبت والتيقن(٢٤). وسأكتفي بذكر حديثين: الأول عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن إذا شهد أن لا إله إلا الله، وعرف محمداً صلى الله عليه وسلم في قبره فذلك قول الله عز وجل: ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾(٢٥). والحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا** ..." فقال: ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك وما دينك ومن نبيك ..."(٢٦).

فقد صرحت هذه الأحاديث والآثار الصحيحة بأن هذه الآية تدل على عذاب القبر، وإذا فسرت الآية بالأحاديث الصحيحة فقد تعينت دلالتها على وجه من اليقين يقطع كل شك أو ريب، ولا يحتاج معه إلى مزيد بيان. ولهذا فإنا نجد المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم ومناهجهم يصرحون بأن هذه الآية نزلت في سؤال الميت في قبره وأنها دليل على عذاب القبر ونعيمه.

٢٤- انظر: البيهقي، **كتاب إثبات عذاب القبر**، تحقيق شرف القضاه، وهو من المختصين بعلم الحديث، قال في وصف عمله في تحقيق الكتاب، ص ٦: "أحصيت عدد ما ورد في الكتاب من أحاديث وآثار عن بعض الصحابة والتابعين فوجدتها ٢٤٠ .... وأحصيت عدد ما ورد في الكتاب من أحاديث مخرجة في الصحيحين أو أحدهما، فوجدتها ٧٣ حديثاً، وأما بقية الأحاديث فكثير منها على شرطهما أو شرط أحدهما وبعضها صحيح أو حسن، وقسم منها أحاديث ضعيفة وهي ليست كثيرة.

٢٥- انظر: **فتح الباري**، ج ٣، ص ٢٣١ حديث رقم ١٣٦٩، و**صحيح مسلم بشرح** النووي، ج ٨، ص ١٦٢، حديث رقم ٢٨٧١، والبيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ٢٧.

٢٦- انظر: البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ٢٩، و **تفسير ابن كثير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٥٣٤.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "قال المفسرون: هذه الآية وردت في فتنة القبر، وسؤال الملكين، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، وتثبيته إياه على الحق"(٢٧). وقال الرازي رحمه الله: وفي الآية قول آخر وهو المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر ..." (٢٨). وكذلك قال السيوطي رحمه الله: الآية نزلت في سؤال منكر ونكير للمقبور كما أخرجه الشيخان وغيرهما(٢٩). وهذا ما ذكره الزمخشري رحمه الله: واستدل عليه بحديث البراء بن عازب رضي الله عنه(٣٠). وأما ابن تيمية رحمه الله وقد سئل وهو في مصر عن عذاب القبر فاستدل بهذه الآية، وهذا الحديث(٣١).

٢- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة طه، الآيتان ١٢٣- ١٢٤: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾.

روى البيهقي في كتابه **إثبات عذاب القبر** في تفسير هذه الآية وبيان دلالتها على عذاب القبر، أربع عشرة رواية بين حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأثر عن الصحابة والتابعين(٣٢)، كلها تصرح بأن المعيشة الضنك الواردة في الآية هي عذاب القبر، يكفينا منها ما رواه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المعيشة الضنك عذاب القبر"(٣٣).

وبهذا قال أبو سعيد الخدري وابن مسعود وابن عباس والسدي ومجاهد وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. وقال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله بعد أن شرح معنى الضنك وأنه الضيق والشدة والشقاء: "واختلف أهل التأويل في الموضع الذي جعل الله تعالى لهؤلاء المعرضين عن ذكره العيشة الضنك، والحال التي جعلهم فيها فقال بعضهم: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم، وقال آخرون: بل عني بذلك في الدنيا، وقال آخرون: بل عني بذلك: أن ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر .. ثم

٢٧- ابن الجوزي، **زاد المسير**، المكتب الإسلامي، ١٩٨٤م، ط ١، ج ٤، ص ٣٦١.

٢٨- **تفسير الرازي**، ج ١٩، ص ١٢٤-١٢٥.

٢٩- السيوطي، **الإكليل**، ص ١٥٩.

٣٠- الزمخشري، **الكشاف**، دار الفكر، ج ٢، ص ٣٧٧.

٣١- **مجموع الفتاوى**، ج ٤، ص ٢٨٧.

٣٢- انظر: **إثبات عذاب القبر**، ص ٥٩ – ٦٣.

٣٣- **إثبات عذاب القبر**، ص ٥٩، وانظر: **المستدرك**، ج ١، ص ٣٨١، صحح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قال رحمه الله: قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر"(٣٤). واستدل على قوله بالروايات الصحيحة وبطريق الدراية، كما سيأتي بيانه عند إيضاح دلالة القرآن بطريق الدراية.

وتبع الطبري في قوله جم غفير من المفسرين وأهل العلم، فقال الشوكاني رحمه الله في تفسير هذه الآية وبيان الأقوال فيها: "وقد قيل إن المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر،وسيأتي ما يرجح هذا ويقويه ... ثم ساق الأحاديث والآثار المروية المفسرة للمراد بالمعيشة الضنك وأنها عذاب القبر، وقال بعد ذلك: "مجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنك بعذاب القبر"(٣٥). وأما القرطبي رحمه الله فذكر الأقوال المشهورة في تفسير الآية ثم قال: "وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر، قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم(٣٦).

وبهذا قال الرازي(٣٧)، والزمخشري(٣٨)، وابن كثير(٣٩)، والسيوطي(٤٠)، وكذلك الشنقيطي رحمه الله في **أضواء البيان**، قال عند تفسير هذه الآية: "وعن أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة: المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطه. وقد أشار الله تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِيْنَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَآءُ**﴾ سورة إبراهيم، الآية ٢٧. قال مقيِّدة عفا الله عنه وغفر له: قد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر، وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير الآية. ورأينا في ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا وطعام الضريع والزقوم في الآخرة، فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والآخرة والعياذ بالله تعالى"(٤١).

٣٤- **تفسير الطبري**، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٨م، ط ٣، ج ١٦، ص ٢٢٥- ٢٢٨.

٣٥- الشوكاني، **فتح القدير**، دار الفكر، ج ٣، ص ٣٩١- ٣٩٢.

٣٦- **تفسير القرطبي**، ج ١١، ص ١٦٩، وانظر له أيضاً: **التذكرة**، ص ١٦٨.

٣٧- انظر: **تفسير الرازي**، ج ٢٢، ص ١٣٠ — ١٣١.

٣٨- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٢، ص ٥٥٨.

٣٩- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٣، ص ١٦٨- ١٦٩.

٤٠- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ١٧٧.

٤١- الشنقيطي، **أضواء البيان**، ١٩٧٩م، ط ٢، ج ٤، ص ٥٤٨.

٣- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة غافر الآية ٤٥-٤٦: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوْا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوْءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

اعتبر العلماء هذه الآية من أشد الآيات صراحة في إثبات عذاب القبر، وإن كان تعويلهم في ذلك على منطق الدراية أكثر من الرواية، فهذا ابن كثير رحمه الله يقول عند تفسير هذه الآية: "وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور"(٤٢). وقال الرازي رحمه الله: "احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر. قالوا: الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً، وليس المراد منه يوم القيامة". وقال ابن حجر في **فتح الباري**: "قال القرطبي: الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر"(٤٣). وقال السيوطي رحمه الله: "وفي **العجائب** للكرماني في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر"(٤٤).

وقد بنى هؤلاء العلماء وغيرهم، على ما ورد في تفسير هذه الآية من الأحاديث الآثار المروية عن بعض الصحابة والتابعين، فقد روى البيهقي في ذلك ستة آثار عن ابن عمر وأبي هريرة ومجاهد وقتادة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنها حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه". رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أهل السنة(٤٥). وقال الزحيلي من المعاصرين في تفسير هذه الآية وبعد أن أورد الأحاديث المفسرة لها: "وهذه الآية والأحاديث أصل أساسي في إثبات عذاب البرزخ في القبر، وأن عذاب القبر حق واقع لا شك فيه"(٤٦). وأما الإمام الطبري رحمه الله فقال عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى ذكره مبيّناً عن سوء العذاب الذي حل بهؤلاء الأشقياء من قوم فرعون ... إنهم لما هلكوا وغرقهم الله، جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كل يوم مرتين غدواً وعشياً إلى أن تقوم

٤٢- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٤، ص ٨١.

٤٣- انظر: **فتح الباري**، ج ٣، ص ٢٣٣، وانظر **تفسير القرطبي**، ج ١٥، ص ٢٨٥، وانظر له **التذكرة** أيضاً، ص ١٦٨.

٤٤- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ٢٢٦.

٤٥- انظر: البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ٥٤.

٤٦- انظر: وهبة الزحيلي، **التفسير الميسر**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م، ط ١، ص ١٣٢.

الساعة، ثم أورد جملة من الروايات في بيان وقت هذا العرض وزمانه ومكانه، فنقل عن الهذيل بن شرحبيل، والسدي، والأوزاعي، ومحمد بن كعب القرضي وقتادة ومجاهد. وقال بعد ذلك كله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً. وجائز أن يكون ذلك العرض على النار على نحو ما ذكرنا عن الهذيل ومن قال مثل قوله، وأن يكون كما قال قتادة، ولا خبر يوجب الحجة بأن ذلك المعني به، فلا في ذلك إلا ما دل عليه ظاهر القرآن، وهو أنهم يعرضون غدواً وعشياً(٤٧).

٤- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة الطور، الآية ٤٧: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا عَذَابًا دُوْنَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ**﴾.

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية وبيان المراد بالعذاب الذي هو دون عذاب يوم القيامة: اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعد الله به هؤلاء الظلمة من دون يوم الصعقة، فقال بعضهم: هو عذاب القبر.. وقال آخرون: عنى بذلك الجوع .. وقال آخرون: عنى بذلك المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهاب الأموال والأولاد.

وروي في القول الأول وأنه عذاب القبر، عن البراء بن عازب، وابن عباس رضي الله عنهم ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذاباً دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخصص الله نوعاً من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع بل عمّ فقال: "وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك" فكل ذلك لهم عذاب، وذلك لهم دون يوم القيامة"(٤٨). وقال السيوطي في بيان العذاب المراد: فسّره ابن عباس بعذاب القبر. أخرجه ابن أبي حاتم، وأخرج عن أبي كريمة الكندي قال: "تذاكرنا عذاب القبر، فقال زادان: أو ليس هو في كتاب الله، قالوا أين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا عَذَابًا دُوْنَ ذَلِكَ**﴾(٤٩). وأما الشنقيطي فقال: "ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند الله تعالى"(٥٠).

٤٧- انظر: **تفسير الطبري**، ج ١٤، ص ٧١- ٧٢.

٤٨- انظر: **تفسير الطبري**، ج ٢٧، ص ٣٦- ٣٧.

٤٩- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ٢٤٨، **والدر المنثور** له، ج ٧، ص ٦٣٦.

٥٠- انظر: الشينقيطي، **أضواء البيان**، ج ٧، ص ٦٩٥.

٥- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة السجدة، الآية ٢١: ﴿ **وَلَنُذِيْقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُوْنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ** ﴾.

قلت: هذه الآية قريبة الشبه من الآية السابقة، وقد تعددت الأقوال في بيان المراد بالعذاب الأدنى الذي يكون قبل عذاب يوم القيامة، فقال ابن عباس في رواية عنه يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا، وروي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، وفي رواية أخرى عن ابن عباس يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعني به عذاب القبر. وقيل غير ذلك من الأقوال(٥١). قال الشوكاني في تفسير هذه الآية بعد إيراد جميع الأقوال في تعيين المراد بالعذاب الأدنى: "ولا مانع من الحمل على الجميع"(٥٢) فالآية تحتمل عذاب القبر وغيره مما يلحق بالعصاة قبل يوم القيامة، والذي يهمنا هنا أن الآية تدل فيما تدل عليه على عذاب القبر كما قاله من قاله من الصحابة والتابعين.

٦- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة التوبة، الآية ١٠١: ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُوْنَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ مَرَدُوْا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيْمٍ** ﴾.

وهذه الآية أيضاً قريبة الشبه بالآيتين السابقتين، فهي تتحدث عن عذاب بل عذابين يقعان على المنافقين قبل العذاب العظيم يوم القيامة، وقد تعدد الأقوال والآراء في تعيين العذابين، جمعها الرازي في تفسيره فقال رحمه الله: "وذكروا في تفسير المرتين وجوهاً كثيرة: الوجه الأول قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة". الوجه الثاني: روى السدي عن أبي مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة. فقال: "اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق" فأخرج ناساً وفضحهم فهذا هو العذاب الأول، والثاني عذاب القبر. والوجه الثالث: قال مجاهد: في الدنيا بالقتل والسبي وبعد ذلك بعذاب

٥١- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٣، ص ٤٦٢.

٥٢- انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٤، ص ٢٥٤.

القبر. والوجه الرابع: قال قتادة: بالدبيلة[٥٣]، وعذاب القبر. والوجه الخامس: قال الحسن: بأخذ الزكاة من أموالهم، وعذاب القبر. والوجه السادس: قال محمد بن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام، ودخولهم فيه من غير حسنة، ثم عذابهم في القبور. والوجه السابع: (ولم ينسبه لأحد) أحد العذابين ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والآخر عند البعث. وقال بعد ذلك: والأولى أن يقال مراتب الحياة ثلاثة: حياة الدنيا، وحياة القبر، وحياة القيامة، فقوله: "سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم" المراد منه العذاب في الحياة الثالثة، وهي الحياة في القيامة يعني النار المخلدة المؤبدة"[٥٤].

وذكر هذا ابن حجر في **فتح الباري**: فقال "وروى الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في **الأوسط** من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس وذكر الحديث، ثم قال: فهذا العذاب الأول، والعذاب الثاني عذاب القبر. ونقل كلام الطبري فقال: وقال الطبري بعد أن ذكر اختلافاً عن غير هؤلاء: والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم من الجوع أو السبي أو القتل ... إلخ"[٥٥]. وقد استدل البيهقي رحمه الله بهذه الآية، ونقل عن قتادة رضي الله عنه أنه عذاب القبر[٥٦]. وأخيراً هذا ما أكده الزمخشري رحمه الله إذ قال: "المرتان: قيل هما القتل وعذاب القبر، وقيل الفضيحة وعذاب القبر" وذكر حديث ابن عباس رضي الله عنه ثم قال رحمه الله: "فهذا العذاب الأول والثاني عذاب القبر"[٥٧]. فالآثار والروايات وأقوال المفسرين صريحة في أن العذاب في إحدى المرتين هو عذاب القبر.

٥٣- **الدبيلة عند ابن كثير**، ج ٢، ص ٣٨٥ في حديث المنافقين الذين أسرّ بهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى حذيفة بن اليمان أن ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، قلت: لعله ما يعرف في الطب اليوم بالحزام الناري.

٥٤- انظر: **تفسير الرازي**، ج ١٦، ص ١٧٧- ١٧٨، وانظر: أيضاً الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١١، ص ١١، **وابن كثير**، ج ٢، ص ٣٨٥.

٥٥- انظر: **فتح الباري**، ج ٣، ص ٢٣٣، وراجع **تفسير الطبري** عند تفسير هذه الآية.

٥٦- انظر: البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ٥٦.

٥٧- انظر: الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج ٢، ص ٢١١.

٧- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة غافر، الآية ١١: ﴿**قَالُوْا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْـنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْـنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِـذُنُوْبِـنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوْجٍ مِّنْ سَبِـيْلٍ**﴾. وقوله تعالى في سورة البقرة، الآية ٢٨: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِـاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُـمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُـمَّ يُحْيِـيْكُمْ ثُـمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ**﴾.

تتحدث هذه الآيات عن إماتتين وإحياءتين، ثم بعد ذلك الرجوع إلى الله تعالى يوم القيامة. فما المراد بهما؟ متى يكونان أو أين يكونان؟ ولا أريد أن أجيب عن هذا هنا فمحله عند إيضاح دلالة هذه الآيات بالدراية وأكتفي هنا بإيراد قول من قال بأن هذه الآية ومثيلتها من سورة البقرة تدل على عذاب القبر.

فقد استدل بها البيهقي رحمه الله ونقل عن محمد بن كعب القرضي أنه قال: "هذا قول الكفار، فموت الكافر في حياته في الدنيا على الكفر، والثانية موته فهما موتتان، وإحدى الحياتين حياته في قبره بعد موته، والثانية حياته للبعث". ويذكر عن غيره أنه قال: إحدى الموتتين موته بعد حياته في دار الدنيا، والأخرى موته حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، وإحدى الحياتين حياته بعد موته لسؤال الملكين والإحساس بالعذاب، والأخرى حياته للبعث. قال: وقد قيل غير ذلك وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنصيص على أنه تعاد روحه في جسده، ثم أورد حديث البراء بن عازب(٥٨). وفيه قوله صلى الله عليه وسلم فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان ويفسح له في قبره مدَّ بصره"(٥٩).

ونقل القرطبي رحمه الله في تفسيرها عن السدي فقال: "قال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة ثم أميتوا في القبور ثم أحيوا في الآخرة" واستدل العلماء بهذا على إثبات سؤال القبر(٦٠). ومن هنا قال الزحيلي: "احتج أكثر العلماء بآية: ﴿**رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْـنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْـنَتَيْنِ...**﴾ في إثبات عذاب القبر بناءً على تفسير السدي: أي أنهم أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للسؤال، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة وإنما جنح إلى هذا التفسير، لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة، وكذلك تدل هذه الآية على حصول الحياة في القبر"(٦١).

٥٨- رواه أبو داود في **السنن**، ج ٢، ص ٥٤٠ ورجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد في **مسنده**، ج ٧، ص ٧٤.

٥٩- انظر: البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ٥٠ ـ ٥٣.

٦٠- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١٥، ص ٢٩٧- ٢٩٨، وانظر **تفسير ابن كثير**، ج٤، ص ٧٣، والآلوسي، **روح المعاني**، ج ٢٤، ص ٥٢.

٦١- انظر: الزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ٢٤، ص ٩٣.

٨- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ١٥٤: ﴿**وَلاَ تَقُوْلُوْا لِمَنْ يُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِنْ لاَّ تَشْعُرُوْنَ**﴾. وقوله تعالى في سورة آل عمران، الآية ١٦٩: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ**﴾.

هاتان الآيتان نص صريح الدلالة على نعيم الشهداء في البرزخ، وأنهم أحياء يتنعمون بنعيم الجنة، وأنهم أحياء وليسوا أمواتاً، غاية ما في الأمر أن حياتهم ليست من جنس الحياة المادية المشهورة. واستدل العلماء بهذه الآيات على إثبات عذاب القبر، قال الشوكاني رحمه الله: "وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية"(٦٢). ثم أورد رحمه الله الأحاديث والآثار المروية في حياة الشهداء ونعيم أرواحهم.

وقال ابن كثير رحمه الله: "يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون كما جاء في **صحيح مسلم**: "إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ..." (٦٣). وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"(٦٤).

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "... ومنهم من يقول: ترد إليهم الأرواح في قبورهم فينعمون كما يحيا الكفار في قبورهم فيعذبون، وقال مجاهد: يرزقون في ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها ... وقال آخرون: أرواحهم في أجواف طير خضر وأنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون. وهذا هو الصحيح من الأقوال، لأن ما صح به النقل فهو الواقع وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف، وكذلك حديث ابن مسعود خرجه مسلم في **الصحيح**. وقد أتينا على هذا المعنى، مبيّناً في كتاب **التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة** والحمد لله"(٦٥). وكذلك قال السيوطي رحمه الله بأن الآية فيها دلالة على حياة الشهداء بعد الموت(٦٦).

٦٢- انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج ١، ص ١٥٩.

٦٣- رواه مسلم في **صحيحه** كتاب الإمارة باب ٣٣، حديث رقم ١٢١، ج ٣، ص ١٥٠٢.

٦٤- رواه النسائي وابن ماجة في **السنن** ومالك في **المؤطأ** وأحمد في **مسنده**، ج ٣، ص ٤٥٥.

٦٥- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ٤، ص ٢٦٩- ٢٧٠.

٦٦- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ٣٤.

ومن هنا قال الزحيلي في تفسير هذه الآية: "ولا تقولوا عن شهداء الكفاح والجهاد الخالص: أنهم أموات، بل هم أحياء في قبورهم حياة ذات طراز خاص ومعالم خاصة، ويرزقون رزقاً على كيفية، الله أعلم بها، ولكنا لا نستطيع إدراك حقيقة تلك الحياة بميزان الحس والمشاهدة فهي حياة غيبية، في عالم آخر وطراز آخر، وكل ما في الأمر أن الله تعالى أخبرنا عنها ..." (٦٧).

٩- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة الأنعام، الآية ٩٣: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِيْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ أَخْرِجُوْا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ**﴾. وقوله تعالى في سورة الأنفال، الآية ٥٠: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُوْنَ وُجُوْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوْقُواْ عَذَابَ الْحَرِيْقِ**﴾.

لم أجد من الروايات والأحاديث والآثار شيئاً يستدل به على أن هذه وردت في عذاب القبر، أو ما يوضح دلالتها على ذلك وغاية ما جاء في تفسيرها أقوال لأئمة التفسير قد يكون مردها إلى الدراية لا إلى الرواية في الأغلب. فتجد السيوطي رحمه الله تعالى يقول: "الآية في حال الكافر عند القبض وعذاب القبر"(٦٨). والزمخشري رحمه الله قال: "يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع، وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة"(٦٩). وكذلك الشوكاني يقول: "... أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه مبدؤه عذاب القبر"(٧٠). بينما أغفل الرازي والآلوسي الإشارة إلى دلالتها على عذاب القبر(٧١).

١٠- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة فصلت، الآية ٣٠: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوْا وَلاَ تَحْزَنُوْا وَأَبْشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِيْ كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ**﴾.

ذكر المفسرون في تعيين وقت تنزل الملائكة عدة أقوال مروية عن أئمة التفسير من التابعين. قال ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى: تتنزّل عليهم الملائكة" قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه يعني الموت ... وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، حكاه ابن جرير عن ابن

٦٧- الزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ٢، ص ٤٠.

٦٨- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ١٢٠.

٦٩- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٢، ص ٣٦.

٧٠- انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٢، ص ١٤٠.

٧١- انظر: **تفسير الرازي**، ج ١٣، ص ٨٨-٩٢، والآلوسي، **روح المعاني**، ج ٧، ص ٢٢٤.

عباس والسدي، فقال زيد بن أسلم يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، رواه ابن أبي حاتم، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً، وهو الواقع"[٧٢]. وهذا الذي استحسنه ابن كثير في تفسيره، عزاه الشوكاني إلى وكيع فقال عند تفسير هذه الآية: "وقال وكيع: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث"[٧٣]. واختار هذا أبو السعود في تفسيره فقال: "والأظهر هو العموم والإطلاق"[٧٤].

١١- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩-١٠٠: ﴿**حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ**﴾.

استدل العلماء بهذه الآية على عذاب القبر فذكر ابن كثير في تفسيرها بسنده عن ابن أبي حاتم فيما رواه أبو هريرة رضي الله قال: "إذا وضع ـ يعني الكافر ـ في قبره فيرى مقعده من النار فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً فيقال له قد عمرت ما كنت معمراً، فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها". ونقل بسنده أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا في وسطه فذاك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى[٧٥]. وقال الزحيلي: "والخلاصة: أن المراد من قوله "إلى يوم يبعثون" أي أن العذاب يستمر بهؤلاء إلى يوم البعث ثم ذكر الأثر المروي عن عائشة في تفسيرها للمراد بعذاب البرزخ"[٧٦].

١٢- إيضاح دلالة في قوله تعالى في سورة نوح، الآية ٢٥: ﴿**مِمَّا خَطِيْئَاتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُم مِّنْ دُوْنِ اللَّهِ أَنْصَارًا**﴾.

٧٢- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٤، ص ٦٦.

٧٣- انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٤، ص ٥١٥.

٧٤- انظر: **تفسير أبي السعود**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٨، ص ٤١.

٧٥- **تفسير ابن كثير**، ج ٣، ص ٢٥٥- ٢٥٦، وانظر أيضاً الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٣، ص ٥٠١.

٧٦- الزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ١٨، ص ١٠١- ١٠٢.

اختلف المفسرون في تعيين النار التي أدخل فيه قوم نوح، على قولين: الأول هي نار الآخرة، ونسبه الرازي إلى مقاتل والكلبي(٧٧). والقول الآخر هو نار القبر قال الآلوسي: "هي نار البرزخ والمراد عذاب القبر، ومن مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبور من العذاب، ثم قال: ويجوز أن يراد الآخرة"(٧٨). وقد ذكر الوجهين كثير من المفسرين ولم يرجحوا وجها على الآخر(٧٩). قلت: ولا مانع من القول بشمول الخطاب لعذاب القبر وعذاب الآخرة وسبب اختلاف المفسرين يرجع إلى عدم وجود مرويات عن الصحابة والتابعين فضلاً عن أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسر النار المذكورة في الآية، وإنما كان التعويل على الدراية والاجتهاد كما سيأتي ذكره.

١٣- إيضاح دلالة قوله تعالى في سورة التكاثر: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾.

واستدل العلماء بهذه السورة الكريمة على عذاب القبر ـ قال الشيخ محمد رشاد سالم رحمه الله في تتمة **أضواء البيان** للشنقيطي: "واستدل به البعض على إثبات عذاب القبر"(٨٠).

وروى البيهقي بسنده عن الإمام علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر"(٨١). وذكره السيوطي فقال: أخرج الترمذي وابن جرير عن علي قال وذكره(٨٢). وكذلك أخرجه ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه(٨٣). وقال الرازي: روى ذر أنه قال كنت أشك في عذاب القبر، حتى سمعت علي بن أبي طالب يقول: إن هذه الآية تدل على عذاب القبر(٨٤). وأخرج القرطبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾ "قال: ما

٧٧- **تفسير الرازي**، ج ٣٠، ص ١٤٥.

٧٨- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ٢٩، ص ٧٩.

٧٩- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ١٦٥ والشوكاني، **فتح القدير**، ج ٥، ص ٣٠١ **وتفسير أبي السعود**، ج ٩، ص ٤١، والزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ٢٩، ص ١٤٩.

٨٠- الشنقيطي، **تتمة أضواء البيان**، ج ٩، ص ٤٧٨.

٨١- البيهقي، **إثبات عذاب القبر**، ص ١٧٨ هامش رقم ٢٤٧، والحديث أخرجه الترمذي في **السنن**، ج ٥، ص ٤٤٧ حديث رقم ٣٣٥٥ وقال عنه: حديث غريب.

٨٢- انظر: السيوطي، **الإكليل**، ص ٢٩٧.

٨٣- **تفسير ابن كثير**، ج ٤، ص ٥٤٥.

٨٤- **تفسير الرازي**، ج ٣٢، ص ٧٨.

ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿**ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب، فالأول في القبر، والثاني في الآخرة"[٨٥]. ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾ فهذا خبر عن علمهم في المستقبل، ولهذا روي عن علي أنه في عذاب القبر[٨٦].

وبقي أن أقدم مزيداً في الإيضاح والكشف والبيان لدلالة هذه الآيات من خلال ما استنبطه العلماء عن طريق اللغة وأساليب البيان.

ثانيا: إيضاح دلالة الآيات بالدراية:

في الوقت الذي ركز فيه العلماء والمفسرون على إيضاح دلالة القرآن على عذاب القبر بواسطة الأحاديث النبوية والآثار الصحيحة المروية عند الصحابة والتابعين باعتباره الطريق المباشر في ذلك فإنهم لم يغفلوا تفسير الآيات وتوجيهها بواسطة الرأي وأساليب الدراية المختلفة، فكشفوا عن مواطن الدلالة في تلك الآيات، ووضحوها كما سبق وأشرت إليه. وهنا سأقوم ببيان دلالة الآيات التي استدل بها العلماء على عذاب القبر ونعيمه، عن طريق نظرهم العقلي واجتهادهم الفكري، في الوصول إلى تعيين وجه دلالة النص على هذا المطلب، بحيث لا يبقى لواهم أن يقول: إن القرآن لم يدل على عذاب القبر.

١- بيان دلالة الآية ٢٧ من سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا...**﴾.

اختلف المفسرون في بيان المراد بالحياة الدنيا والحياة الآخرة في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى الظاهر المتبادر المعروف، وهو أن الحياة الدنيا مدة الحياة والعيش في هذه الحياة، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الأخرى بعد البعث والنشور، كما ذكره الآلوسي[٨٧]. وقال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر، بحجة أن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا، والمراد "بالآخرة" وقت الحساب[٨٨]. وقال ابن الجوزي: "قوله تعالى: ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الحياة الدنيا زمان الحياة على وجه الأرض، والآخرة: زمان المساءلة في القبر .. والثاني

٨٥- انظر: القرطبي، **التذكرة**، ص ١٦٨.

٨٦- انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج ١٦، ص ٥١٧.

٨٧- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٣، ص ٢١٧.

٨٨- الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٣، ص ١٠٧-١٠٨.

أن الحياة الدنيا: زمن السؤال في القبر، والآخرة: السؤال في القيامة.."[٨٩]. وقال الرازي في التعليق على القول الأول من قولي ابن الجوزي: "وإنما فسّر الآخرة ههنا بالقبر لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة"[٩٠].

قلت: الذي دفع بالعلماء إلى هذا هو نظرتهم إلى المرحلة البرزخية، فمنهم من أتبعها للحياة الدنيا، ومنهم من أتبعها للحياة الآخرة، وإن كانت هي مرحلة مستقلة بنفسها لها أحكامها الخاصة، ولكن لها اتصال بالدنيا من جهة، واتصال آخر بالآخرة من جهة أخرى.

٢- بيان دلالة الآية من سورة طه، الآية ١٢٤: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ**﴾.

اختلف المفسرون في تعيين المراد المعيشة الضنك في هذه الآية على خمسة أقوال ذكرها ابن الجوزي، والرازي، تتلخص في ثلاثة أقوال كما قال ابن الجوزي "فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال: أحدها: القبر، والثاني: الدنيا، والثالث: جهنم"[٩١]. وذهب بعض المفسرين إلى القول بأن المعيشة الضنك هي في الحياة الدنيا، قال القاسمي: "والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي" ونقل كلام ابن كثير من ذلك[٩٢]. ونحا ابن القيم وآخرون، إلى القول بأن المعيشة الضنك أعم من ذلك، فقال ابن القيم: "وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره فهي لازمة لمن أعرض عن ذكره تعالى الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد"[٩٣].

قلت: وأنا أميل إلى القول بالعموم لأنه يثبت عذاب القبر وغيره والمطلوب إثبات عذاب القبر، فيثبت به من غير خلاف في كلا القولين. ثم الذي يدل عليه ويقويه نظم الآيات فقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ**

٨٩- ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ٤، ص ٣٦١.

٩٠- **تفسير الرازي**، ج ١٩، ص ١٢٥.

٩١- ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ٥، ص ٣٣١- ٣٣٢.

٩٢- محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ط ٢، ج ١١، ص ٢٠٣.

٩٣- انظر: **تفسير أبي السعود**، ج ٦، ص ٨٤، والشنقيطي، **أضواء البيان**، ج ٤، ص ٥٤٨.

يُؤْمِنْ بِـآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾. فالآيات تتحدث عن أكثر من نوع أو مرحلة من مراحل العذاب، بدلالة قوله ﴿**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾**. ففي هذا دلا لة ظاهرة على عذاب سابق ومتقدم على عذاب الآخرة وهو عذاب القبر، فهما عذابان وليسا عذاباً واحداً كما توهّم بعض نفاة عذاب القبر قديماً وحديثاً.

٣- بيان دلالة قوله تعالى في سورة غافر، الآية ٤٦: ﴿**اَلنَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا...**﴾.

سبق نقل كلام أهل العلم بأن هذه الآية أصل كبير في الدلالة على عذاب القبر، وأن دلالتها واضحة على أن العرض هو في البرزخ، وهو أظهر الأقوال في المسألة وأدل دليل. أما إنه أظهر الأقوال فقد علله شارح **العقيدة الطحاوية** بقوله: "لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدينا"(٩٤)، والقرطبي بقوله: "ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب"(٩٥)، وكذلك قال الشوكاني: "فإن قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ ...**﴾. يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ"(٩٦).

ووضوح الدلالة جاء من باب مغايرة المعطوف والمعطوف عليه في الآية، كما قال الكرماني فيما نقله عنه السيوطي إذ قال: وفي **العجائب** للكرماني: في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه(٩٧). وقد أعجبني استدلال الرازي بطريقة أخرى إذ يقول: "احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، فقالوا: الآية تقتضي عرض النار على آل فرعون غدواً وعشياً، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب..، وليس المراد منه أيضاً الدنيا، لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت، وقبل القيامة، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم، لأنه لا قائل بالفرق"(٩٨). ومن هنا جاء قول سيد قطب رحمه الله: "والنص يلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة، وقد

٩٤- ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب السلفي، ص ٤٤٨.

٩٥- **تفسير القرطبي**، ج ١٥، ص ٣١٨-٣١٩.

٩٦- الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٤، ص ٤٩٥، وانظر الزحيلي، **التفسير الميسر**، ص ١٣٤- ١٣٥.

٩٧- السيوطي، **الإكليل**، ص ٢٢٦ وانظر القاسمي، **محاسن التأويل**، ج ١٤، ص ٢٣.

٩٨- **تفسير الرازي**، ج ٢٧، ص ٧٤.

يكون هذا هو عذاب القبر إذ أنه يقول بعد ذلك: ﴿**وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ...**﴾. فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة"(٩٩).

ولا بدّ من الإشارة إلى الإشكال الذي ذكره ابن كثير فقال: ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر من البرزخ ثم ذكر قصة عائشة رضي الله عنها مع خادمتها اليهودية، فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟

فقال والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعيشاً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذا قد يكون ذلك مختصاً بالروح .. وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، كما تقوله المعتزلة ـ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره"(١٠٠). وذكر هذا الإشكال ابن حجر في **الفتح** وأجاب عليه بقوله: "فالذي أنكره النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو وقوع العذاب على الموحدين، ثم أعلم صلى الله عليه وسلم أن ذلك قد يقع على من شاء الله منهم فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه تعليماً لأمته وإرشاداً فانتفى التعارض بحمد الله تعالى"(١٠١).

٤- بيان دلالة قوله تعالى في سورة الطور، الآية ٤٧: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا عَذَابًا دُوْنَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ**﴾.

قلت: ودلالة هذه الآية قريبة الشبه بالآية التي سبقت، وقد وضح الطبري رحمه الله دلالتها على عذاب القبر بعد أن ذكر اختلاف أهل التأويل فيها فقال: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به، عذاباً دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخصص الله نوعاً من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع، بل عم فقال: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا عَذَابًا دُوْنَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ**﴾(١٠٢). وقد اختار الشنقيطي رحمه الله هذا الرأي فقال: "ولا مانع من

٩٩- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشرق، ١٩٨٠م، ط ٩، ج ٥، ص ٣٠٨٤.

١٠٠- **تفسير ابن كثير**، ج ٤، ص ٨١.

١٠١- **فتح الباري**، ج ٣، ص ٢٣٦.

١٠٢- **تفسير الطبري**، ج ٢٧، ص ٣٦-٣٧.

دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي، والعلم عند الله تعالى"(١٠٣).

٥- بيان دلالة قوله تعالى في سورة السجدة، الآية ٢١: ﴿ **وَلَنُذِيْقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُوْنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ** ﴾.

قلت: وهذه الآية أيضاً شبيهة بالآيتين السابقتين فهي تتحدث عن عذاب دون عذاب، وتصف الثاني منهما بالأكبر، فدلالتها على عذاب القبر كسابقتيها فهي من جهة الرأي والنظر تحتمل كل أنواع العذاب التي ذكرها العلماء، ولهذا قال الشوكاني رحمه الله: "ولا مانع من الحمل على الجميع"(١٠٤).

٦- بيان دلالة قوله تعالى في سورة التوبة، الآية ١٠١: ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيْمٍ** ﴾.

قلت: في رأيي دلالة الآية على عذاب القبر ظاهرة لمن تأملها من جهة اللغة فكيف إذا ضم إلى ذلك ما سبق من الآثار والمرويات المنقولة عن الصحابة والتابعين، فهي تتحدث عن ثلاثة أنواع من العذاب، جمعت بين نوعين، وفصلت النوع الثالث بحرف العطف "ثم" وصفته بأنه عذاب عظيم، وهو بلا شك عذاب الآخرة، ويبقى النوعان الآخران، فلا بد أن يكون أحدهما في الحياة الدنيا بجميع ألوانه وأشكاله التي ذكرتها الآثار المروية، ويكون الآخر في الحياة البرزخية، وهو عذاب القبر، فدلالة الآية ظاهرة جداً. وقد أحسن الرازي رحمه الله إذ قال: "الأولى أن يقال مراتب الحياة ثلاثة: حياة الدنيا، وحياة القبر، وحياة القيامة فقوله: "سنعذبهم مرّتين" المراد منه عذاب الدنيا بجميع أقسامه، وعذاب القبر، وقوله ﴿ **ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيْمٍ** ﴾. المراد منه العذاب في الحياة الثالثة وهي الحياة في القيامة، يعني النار المخلدة المؤبدة"(١٠٥).

٧- بيان دلالة قوله تعالى من سورة غافر، الآية ١١: ﴿ **قَالُوْا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ..** ﴾ وآية سورة البقرة ٢٨.

١٠٣- الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج ٧، ص ٦٩٥.

١٠٤- انظر هامش ٥٢.

١٠٥- انظر هامش ٥٤.

هذه الآية تتحدث عن إماتتين وإحياءتين، ثم بعد ذلك يكون الرجوع الأخير إلى الله تعالى يوم القيامة. فما المراد بهما؟ أو متى يكونان؟ أو أين يكونون؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين: الأول: وهو قول السدي رحمه الله فيما نقل عنه ما معناه: أنهم أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبور للمسألة ثم أميتوا في القبور ثم أحيوا في الآخرة، وجمهور العلماء على هذا الرأي(١٠٦). قال القرطبي: وإنما صار السدي إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة في أصلاب الآباء"(١٠٧). وأما القول الآخر كما ذكره الآلوسي: "أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً ـ أي في النطف ـ وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم. وبالإحياءة الأولى إحياءهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام، وبالثانية إحياءهم بإعادة أرواحهم إلى أبدانهم للبعث، وجعلوا نظير ذلك قوله تعالى آية سورة البقرة: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُـمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُـمَّ يُحْيِيْكُمْ**﴾. والآية على هذا القول ليس فيها دلالة على عذاب القبر، ومن قال إنها تدل على عذاب القبر يلزمه إثبات حياة ثالثة وموتة ثالثة، وهذا خلاف نص الآية. وقد عقب الآلوسي على هذا الرأي بما يفهم منه استبعاده له فقال: "والإماتة إن كانت حقيقة في جعل الشيء عادم الحياة سبق بحياة أم لا، فالأمر ظاهر، وإن كانت الإماتة حقيقة في تصيير الحياة معدومة بعد أن كانت موجودة، ففي إطلاقها على ما عُدّ إماتة أولى خفاء لاقتضاء ذلك سبق الحياة ولا سبق فيما ذكر(١٠٨). وكذلك أنكره ابن حجر في **فتح الباري** واعترض على قائليه فقال: (والجواب) بأن المراد بالحياة في القبر للمسألة، وليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن، وتدبيره وتصرفه، وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة، كما حيّ خلق لكثير من الأنبياء لمسألتهم عن أشياء ثم عادوا موتى(١٠٩).

قلت: وحبذا لو استدل ابن حجر رحمه الله أيضاً بحياة الشهداء التي أثبتها القرآن لهم في كثير من الآيات، وكذلك بحياة الأنبياء التي اختص بها الله رسله الكرام ـ مع استدلاله بالحياة العارضة لمن أحياهم الله تعالى لكثير من الأنبياء. فالمجادل أو المنكر لدلالة هذه الآية على عذاب القبر، لا يسعه بحال أن ينكر حياة الشهداء وحياة الأنبياء، فكذلك إثبات الحياة البرزخية بقصد العذاب أو

١٠٦- انظر: **تفسير الرازي**، ج ٢٧، ص ٤٠-٤٢، والزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ٢٤، ص ٩.

١٠٧- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١٥، ص ٢٩٨.

١٠٨- انظر: الآلوسي، **روح المعاني**، ج ٢٤، ص ٥١-٥٢.

١٠٩- انظر: **فتح الباري**، ج ٣، ص ٢٤٠- ٢٤١.

النعيم لا يلزم منها القول: بإثبات حياة ثالثة، وإماتة ثالثة، ومخالفة النص. وتعتبر دلالتها على عذاب القبر ظاهرة لا سيما في ضوء الروايات المفسرة لها والموضحة لدلالتها عليه كما سبق بيانه.

٨- بيان دلالة قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ١٥٤: ﴿**وَلاَ تَقُوْلُوْا لِمَنْ يُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُوْنَ**﴾ والآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

قلت: دلالة الآيتين من الظهور بمكان على أن الشهداء أحياء عند ربهم يتنعمون طيلة الحياة البرزخية، قبل انتقالهم إلى النعيم المقيم في جنات الخلد، ولم يخالف في ذلك أحد، غاية ما يمكن أن يقال: بأن هذا خاص بالشهداء دون غيرهم من الشهداء مثالاً لأهل النعيم، كما اتخذ من آل فرعون، والمنافقين مثالاً لأهل العذاب، وما ينطبق على الصنفين يصدق على كل من يشاركهم في جنس حالتهم ولا عبرة بقول من مال إلى القول بالخصوص كالقاضي عبد الجبار المعتزلي رحمه الله(١١٠).

وفي بيان دلالة هاتين الآيتين قال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله: "وأخبر الله تعالى أن الشهداء في الدنيا يرزقون ويفرحون بفضل الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ...**﴾ وهذا لا يكون إلا في الدنيا لأن الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا ولا قتلوا بعد"(١١١).

٩- بيان دلالة قوله تعالى من سورة الأنعام، الآية ٩٣: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِيْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ...**﴾. وقوله تعالى في سورة الأنفال، الآية ٥٠: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ...**﴾.

قلت: هذه الآيات تكشف عما يحدث للموتى من الكفار والظالمين، من العذاب والإهانة عند موتهم، والحياة البرزخية تبدأ منذ مفارقة الروح للجسد أي من لحظة الوفاة، وبالتالي فدلالتها على عذاب القبر ظاهرة لا تحتاج إلى بيان أو إيضاح، وعند المعارضة يمكن أن يقال: إنها تتحدث عما يلاقونه في قبورهم وعند البعث والنشور وبعده على حد سواء ولا يمكن حمله على عذاب الآخرة فقط.

١٠- بيان دلالة قوله تعالى في سورة فصلت، الآية ٣٠: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ...**﴾.

١١٠- انظر: القاضي عبد الجبار الهمذاني، **شرح الأصول الخمسة**، ص ٧٣٠.

١١١- انظر: أبو الحسن الأشعري، **الإبانة عن أصول الديانة**، تحقيق فوقية حسين محمود، دار الأنصار، ١٩٧٧م، ط ١، ص ٢٤٩.

قلت: هذه الآيات تتحدث عما يلاقيه أهل الاستقامة والتقوى من الإكرام والتثبت والبشارة فهي على غرار الآيات السابقة التي تحدث عن أهل الكفر والظلم والفسوق، وما يلاقونه من الإهانة وألوان العذاب، فدلالتها أيضاً ظاهرة بنفسها، وعند المعارضة يمكن أن يقال: إنها تتحدث عما يلاقيه أهل الطاعة في قبورهم وما بعد البعث والحشر، ولا يصح حمله على نعيم الآخرة فقط.

١١- بيان دلالة قوله تعالى في سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩-١٠٠: ﴿**حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ ... كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ**﴾.

استدل العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، وفي رأيي أن دلالة الآية ظاهرة، لما فيها من التهديد والوعيد بما في المرحلة البرزخية ـ وهي مرحلة القبر ـ من ألوان العذاب المستمر حتى يوم البعث والنشور. قال ابن كثير: "وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ**﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ .. وقوله تعالى: ﴿**إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ**﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث"(١١٢). وقال الزحيلي: "وهذا تهديد بعذاب البرزخ، وتيئيس إلى يوم القيامة لهؤلاء الظلمة من الرجوع أبداً"(١١٣).

قلت: فقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ ...**﴾ أسلوب معروف ينطوي على التهديد والوعيد والتلويح بالعذاب يستعمل في مواطن الترهيب، وحالات الغضب، وله أثره النفسي على السامع المعني بالأمر، فينزجر ويرتدع ويستجيب لما هو مطلوب منه. ولا يعقل أن يهدد الله تعالى العصاة، ويتوعدهم بما لا حقيقة له، وإلا كان ذلك نوعاً من الكذب أو اللغو في القول، وكلام الله تعالى منزّه عن هذا وذاك، فلولا أن في المرحلة البرزخية عذاباً يلحق العصاة غير عذاب الآخرة لما صح في القول أن يقول: ﴿**وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ**﴾.

١٢- بيان دلالة قوله تعالى في سورة نوح، الآية ٢٥: ﴿**مِمَّا خَطِيْئَاتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا**﴾.

فسر العلماء دخول النار هنا على قولين: أنه يكون في الآخرة، والوجه الآخر: أنه يكون في القبر، واستدل كل فريق على رأيه باللغة. فأصحاب الرأي الثاني يرون أن دلالة هذه الآية على عذاب القبر ظاهرة. قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: "أما ثبوته، فالذي يدل عليه قوله تعالى:

١١٢- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٣، ص ٢٥٦.

١١٣- انظر: الزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ١٨، ص ١٠١-١٠٢.

﴿ **مِمَّا خَطِيْئَاتِهِمْ...** ﴾ فالفاء للتعقيب من غير مهلة، وإدخال النار لا وجه له إلا التعذيب ... ووجه دلالته على عذاب القبر ظاهر"(١١٤).

وظهور الدلالة جاء من خلال نظم الآية كما وضحه الرازي في قوله: "تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله تعالى: ﴿ **أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا** ﴾ وذلك من وجهين، الأول: أن الفاء في قوله ﴿ **فَأُدْخِلُوْا** ﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء. الثاني: أنه قال: ﴿ **فَأُدْخِلُوْا** ﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي"(١١٥). وقال الزحيلي: "استدل بعض أهل السنة وهو القشيري بآية: ﴿ **أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا** ﴾ على إثبات عذاب القبر، لأن إدخال النار حصل عقيب الإغراق، فلا يحمل على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة الفاء على التعقيب، ولأنه قال: ﴿ **فَأُدْخِلُوْا** ﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي"(١١٦). وأما الذين قالوا: المقصود بدخول النار هو عذاب الآخرة يوم القيامة، فقد فسروا الآية وتأولوا استعمال (فاء التعقيب) و(الفعل الماضي أدخلوا) واعتبروا الاستدلال بها على عذاب القبر تركاً للظاهر من غير دليل فقالوا: والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لإغراقهم، لاقترابه، وتحققه لا محالة، بمعنى صاروا مستحقين دخول النار، وأما التعبير بقوله "أدخلوا" بصيغة الماضي فهو تعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لصحة كونه، وصدق الوعد به، وتأكيد وقوعه وصحة وجوده(١١٧).

قلت: الراجح عندي هو القول بأن الآية دليل ظاهر على عذاب القبر لما يلي:

١- الأصل إجراء ألفاظ اللغة على ظاهرها، ولا يصار إلى تأويلها إلا عند تعذر المعنى الظاهر، والقول بوجود عذاب في القبر غير مستبعد، فالفاء للتعقيب من غير إمهال، والفعل الماضي يدل على وقوع الحدث بالفعل والواقع، قبل أن يدل على تحقق وقوعه مستقبلا.

١١٤- انظر: القاضي عبد الجبار المعتزلي، **شرح الأصول الخمسة**، ص ٧٣٠.

١١٥- انظر: **تفسير الرازي**، ج ٣٠، ص ١٤٥.

١١٦- انظر: الزحيلي، **التفسير الميسر**، ج ٢٩، ص ١٥٣.

١١٧- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ١٦٥ **وتفسير أبي السعود**، ج ٩، ص ٤١.

٢- الذين قالوا بهذا القول من أهل اللغة وهم على منزلة لا تقل عن منزلة أصحاب القول الآخر، فمثلاً القاضي عبد الجبار المعتزلي لا يقل شأنا عن الزمخشري، والقشيري أيضاً لا يقل مكانة عن الرازي.

٣- الذين قالوا بدلالة الآية على عذاب الآخرة لم يستبعدوا دلالتها على عذاب القبر، كما هو عند الزمخشري والرازي وأبي السعود وغيرهم، بل لاحظت أنهم لاينتصرون لترجيح قول على قول فكأنهم انطلقوا من مقصد ذكر الآراء والأقوال من المسألة فقط.

٤- هناك أدلة أخرى من القرآن والسنة، كما سبق بيانه تدل على ثبوت عذاب القبر، فتضم إلى هذه الآية فتظهر دلالتها بصورة جلية ظاهرة.

١٣- بيان دلالة قوله تعالى في سورة التكاثر: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُـمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾.

اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُـمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾ على قولين: أحدهما: إنه تكرار للتاكيد و (ثم) للدلالة على أن العلم الثاني: أبلغ من الأول، ذكر هذا غير واحد من المفسرين(١١٨). وعليه فلا دلالة فيها على عذاب القبر. والقول الآخر: إنه ليس في الآية تكرار بل هو إنشاء وتأسيس جديد، فالعلم الأول يكون في القبر بعد الموت، والعلم الثاني يكون يوم القيامة بعد البعث والحشر، ولا شك أن العلم الثاني أبلغ من العلم الأول، ومن هنا استدل بها البعض على عذاب القبر ووصفوه بأنه معقول(١١٩).

قلت: أنا أميل إلى اختيار القول الثاني للمرجحات التالية:

١- الأصل أن القرآن الكريم ليس فيه تكرار(١٢٠)، فكل آية بل كل لفظ فيه تدل على معنى، والتكرار وإن كان يفيد التاكيد ولكن للتأكيد أساليب كثيرة وفي ظني أن

١١٨- انظر: **تفسير أبي السعود**، ج ٩، ص ١٩٥، والشوكاني، **فتح القدير**، ج ٥، ص ٤٨٨، و **تفسير البيضاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ط ١، ص ٨٠٩.

١١٩- انظر: الشنقيطي، **تتمة أضواء البيان**، ج ٩، ص ٤٧٨، **تفسير الرازي**، ج ٣٠، ص ٧٨، **وتفسير القرطبي**، ج ٢٠، ص ١١٨ والآلوسي، **روح المعاني**، ج ٣٠، ص ٢٢٤.

١٢٠- أنا أميل إلى قول من يقول من المعنيين بعلوم القرآن بأنه لا يوجد في النظم القرآني لفظة فضلا عن القول بوجود آية ـ جاءت أو كررت لغاية التأكيد فقط، بحيث لو حذفت تلك اللفظة أو تلك الآية بقي المعنى كما هو ولم ينقص سوى التأكيد فقط. وما أجمل ما نقله الزرقاني في كتابه **مناهل العرفان**، ج ٢، ص ٢٢٢، من كلام الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه **النبأ العظيم** إذ قال: "دَعْ عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية: "إنها "مقحمة" وفي بعض حروفه إنها "زائدة" زيادة معنوية .... دع عنك هذا وذاك، فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها، إنما هو ضرب من الجهل ....".

القرآن لم يستعمل أسلوب التكرار هنا للتأكيد على المطلوب، وإنما كرر الآية ليدل بها على معنى آخر زائد على المعنى السابق، وأنه يتضمن نوعاً من التهديد والوعيد والترهيب.

٢- إنه لو كان تكراراً للتأكيد لما ساغ دخول حرف العطف "ثم" وهو يفيد المغايرة والتراخي، فمجيء الآيتين على هذه الصورة يدل على أن التكرار ليس تكراراً لفظياً وإنما هو تكرار تأسيس وإنشاء معنى جديد وأنه لو كان تأكيدها لفظيا لما فصل بالعطف، ولما فصل بينه وبين غيره.

نقل الزركشي في **البرهان** فيما نقله عن الزمخشري في قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُـمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ**﴾، قال: "إن الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء"(١٢١).

قلت: هذا هو الصواب، ولا ينفع ما اعتذر به الآلوسي رحمه الله عنهم عن مجيء العطف مع التوكيد إذ قال: "ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة فعطف، وإلا فالمؤكد لا يعطف على المؤكد، لما بينهما من شدة الاتصال، ثم قال: فلا تكرار والتراخي على ظاهره مستدلاً على ذلك بما ورد عن الإمام علي رضي الله عنه(١٢٢).

٣- ويؤكد هذا القول أيضاً الأحاديث والآثار المروية في أن المراد هو عذاب القبر، وأن العلم الثاني سيكون يوم القيامة.

١٤- بيان دلالة سورة الواقعة وسورة القيامة ومثيلاتها.

ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واستدل به على إثبات عذاب القبر، من خلال نظره في نظم آيات كل من السورتين، حيث لاحظ أن كل سورة منهما تتحدث عن "القيامة الكبرى" و "والقيامةالصغرى" وما يلاقيه المؤمنون بالله من النعيم في كل منهما، وما يلاقيه الكفار والعصاة من العذاب الأليم فيهما. قال: "فصل مذهب سائر المسلمين بل وسائر أهل الملل إثبات "القيامة الكبرى" وقيام الناس في قبورهم، والثواب والعقاب هناك وإثبات الثواب والعقاب في البرزخ، ما بين الموت إلى يوم القيامة ـ هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة، وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل

١٢١- انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج ٣، ص ١١، ١٢، ١٧.

١٢٢- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ٣٠، ص ٢٢٤.

البدع ... والمقصود هنا: أن كثيراً من أهل الكلام ينكر أن يكون للنفس وجود بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب، ويزعمون أنه لم يدل على ذلك القرآن والحديث، كما أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقا زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن، وهو غلط، بل القرآن قد بيّن في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن، وبين النعيم والعذاب في البرزخ.

وهو سبحانه وتعالى في السورة الواحدة يذكر "القيامة الكبرى" و "الصغرى" كما في سورة الواقعة، فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة .. ثم إنه في آخرها ذكر القيامة الصغرى بالموت، وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت، فقال تعالى: ﴿**فَلَوْلآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوْمَ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْنَ... فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيْمٍ...**﴾. وفي سورة القيامة ذكر أيضاً القيامتين فقال: ﴿**لآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ ثم ذكر معاد البدن فقال: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ**﴾ ... ثم ذكر الموت فقال: ﴿**كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيْلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**﴾. وكذلك سورة "غافر" فذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى وذكر عذاب القيامة والبرزخ معاً في غير موضع، ذكره في قصة آل فرعون فقال: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوْءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾. قال غير واحد من العلماء: "المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ، ثم يردون إلى عذاب عظيم في الآخرة"(١٢٣).

قلت: لم أجد هذا الاستدلال عند غير ابن تيمية من أهل العلم، وهو استدلال موفق، فالمتأمل في سياق الآيات في هذه السور يجد أنها بالفعل تتحدث عن حالتين للإنسان، حال الموت وبعده، وحال عند البعث والنشور والحشر ويوم القيامة، وما يلاقيه الإنسان حسب عمله في كل من الحالتين: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولا شك أن في هذا دلالة واضحة للقرآن على عذاب القبر ونعيمه، وأنه مختلف عن عذاب الآخرة ونعيمها، وعذاب القبر وإن كان من جنس عذاب الآخرة، إلا أنه بالقياس إليه، هو أدنى، وأخف شدة وأهون من عذاب الآخرة، ومختلف عنه، ولا يصح بحال أن يقال: هما عذاب واحد وليس عذابين، أو اسمان لمسمى واحد ويدلان على حقيقة واحدة كما يظنه بعض منكري عذاب القبر، ممن لا أرغب بذكر اسمه كما سبق في المقدمة.

١٢٣- انظر: **مجموع فتاوى ابن تيمية**، ج ٤، ص ٢٦٢- ٢٦٦، ج ١١، ص ١٧٦.

وبعد فهكذا يظهر لنا جلياً واضحاً: أن القرآن الكريم قد ذكر عذاب القبر، ودل عليه، وحذر منه، وتهدد العصاة به، ولا يقبل من أحد أن يقول: بأن القرآن لم يتعرض لذكر عذاب القبر ونعيمه بشيء وإنما جاء من طرق السنة فقط، وكلها أخبار آحاد، والعقيدة لا تثبت بخبر الآحاد على حد قولهم.

خاتمة: النتائج والتوصيات:

بعد الفراغ من دراسة المسألة من جميع أطرافها وفق المنهجية التي وضحتها في المقدمة توصلت إلى أهم النتائج والتوصيات التالية:

١- أن القول بأن القرآن الكريم لم يدل على عذاب القبر ونعيمه، قول غير صحيح، وكان له أسبابه وعوامله.

٢- بل إن القرآن الكريم لم يغفل هذه المسألة، وذكرها في أكثر من خمسة عشر موضعا، تضمنت الإشارة إلى ذلك.

٣- إن دلالة هذه الآيات على عذاب القبر لم تكن دلالة ظاهرة صريحة، على غرار الدلالة على عذاب اليوم الآخر، وهي تحتاج إلى إيضاح وبيان نظراً لاختلاف العلماء على دلالتها وقد وضحت ذلك بحمد الله.

٤- إن توقف بعض العلماء وعدم قطعهم بدلالة آية أو بعض آيات أو ترك الاستدلال بها على هذه المسألة لاعتبارات معينة، لا يضرُ في أصل ثبوتها، ولا يعني أن القرآن لم يذكرها، فإن عذاب القبر قد ثبت بغير آية من القرآن.

٥- وفي ضوء ذلك أوصي بضرورة إشاعة القول بأن القرآن قد دل على عذاب القبر ونعيمه، والالتفات إلى الآيات التي تحدثت عن المرحلة البرزخية، وتمييزها عن الآيات التي تحدثت عن مرحلة اليوم الآخر، لا سيما من خلال المناهج الدراسية على كافة المستويات.

٦- وأحذر من خطورة التشكيك ببعض الثوابت الإيمانية، من قبل غير المختصين بعلوم الشريعة الإسلامية، حتى لو كان ذلك بغير قصد من أصحابها، فإني لا أشكك بحسن نوايا الباحثين ومقاصدهم، فالله وحده الأعلم بالسرائر.

* * * *